بسم الله الرحمن الرحيم

رواية : ثوب الزفاف الأسود

بقلم : د. بسمة رضا

نبذة عن الراوي:

د. بسمه رضا محمد.

طبيبة أمراض جلدية

مواليد القاهره 1974

هاتف: 01008499240

بريد: Basmafayek@gmail.com

ملخص الرواية :

عزيزي القاريء

إذا سبحت بين أسطر الرواية، فوجدت قلبك يرقص فرحًا و يهيم عِشقًا، أو يعتصر ألمًا و يئن قهرًا، إذا ما وجدت عقلك يهديء من روعك قائلًا أنه مجرد حديث روايات، فقط تذكر أن ما تقرأه "حدث بالفعل" .

تحكي الرواية قصة نزوح أسرة مصرية من الريف إلى المدينة في عام 1945 حيث تستعرض الأحداث التي مرت بها الأسرة من خلال عيني بطلة الرواية "سمرا" الابنة الصغرى لأسرة السيد عبد الجليل.

على صعيدٍ عام تستعرض الرواية من خلال الأحداث، طباع الأسرة المصرية في هذا الزمن و طريقة حياتهم، إلى جانب التطور المعماري و المناطق السكنية القديمة والمستحدثة في هذه الحقبة الزمنية، على الجانب الشخصي نتعرف على الأحداث المتتالية التي قد تصل حد الأهوال والتي تعرضت لها البطلة الريفية التي وصلت للقاهرة، طفلة في الثامنة من عمرها، و أثناء نشأتها، و في فترة المراهقة، حتى صارت عروسًا .

تتسم نهاية الرواية بطرح عده تساؤلات ، حيث تهييء القاريء للجزء الثاني الذي يبدأ مع بطلتنا عام 1970 و ينتهي عام 2019 .

مقدمة

عزيزي القارىء :

إذا سبحت بين أسطر هذه الرواية، فوجدت قلبك يرقص فرحًا و يهيم عشقًا ، أو يعتصر ألمًا و يئن قهرًا ، إذا ما وجدت عقلك يهديء من روعك قائلًا أنه مجرد حديث روايات ، فقط تذكر أن ما تقرأه "حدث بالفعل" .

الراوي

أنا : صباح الخير يا بابا (زوجي)

هو: صباح الخير (طبعًا و هو ينظر في الأوراق الخاصة

بالعمل..رد ينم كالعادة عن رغبته في أن أنصرف)

أنا: تفتكر سهل أتواصل مع شركة إنتاج ؟

هو: طبعًا، سهلة (في عقله قائلًا "إمشي بقى")

غريبة !! و لا سأل و لا اِهتم ..هل من العادي أن تسأل زوجة زوجها عن منتج سينمائي في السابعة صباحًا و يرد هكذا ؟

أنا : أنا هكتب قصة .

هو: اكتبي..

و فجأه اِنتبه و رفع عينيه عن أوراقه قائلًا بنبرة ساخرة :

- روحي ذاكري لولادك، اِعملي حاجة مفيدة، مش تقولي لي قصة !!

أنا : شكرًا على التشجيع، دايمًا رافع معنوياتي.

خرجت من غرفة مكتبه، و أغلقت خلفي الباب، و توجهت بسرعة لأمسك بالورقة و القلم، و كأني أخاف أن تهرب مني الأحداث .

ما أن أقدمت على الكتابة حتى وجدت دموعي تنهمر كالفيضان، لا أستطيع أن أرى الورقة، تُرى ما السبب ؟ هل هو حزن أم فرح أم خوف ؟

لا بل هو الشجن ، الشجن ما هو إلا مزيج من هذه المشاعر المختلطة .

هيا تحرر أيها المارد السجين بصدري، تحرر على الورق قبل أن تمزق كياني ، اِخرج كي تروي للعالم قصتها .

الفصل الأول

في الماضي القريب، و تحديدًا في عام 1945 ميلاديًّا، و في ذات صباح مشمس، وجميل في قرية أبو خضر بالدقهلية، خرجت سمرا الطفلة الصغيرة تلعب وحيدة كعادتها في حديقة المنزل، الحديقة المحاطة من جميع الجهات بالحقول الزراعية المملوكة لأبيها .

لاحظت الطفلة ذات السبعة أعوام طائرًا صغيرًا رماديّ اللون، يقف على غصنٍ دانٍ في الشجرة، فأسرعت بإحضار صندوق صغير و بمنتهى الشقاوة أمسكت به و وضعته بداخل العلبة، و هرعت إلى المنزل تصيح في حماسة :

- ماما.. مسكت عصفورة .

كان المنزل مكونًا من طابقين، ليسعها و أخواها الصبيان، سامرالذي يكبرها بخمس سنوات، وسني الذي يكبرها بسبع سنوات، و أختهم الكبرى سناء التي تبلغ من العمر ستة عشر عامًا .

وجدت سمرا والدتها في المطبخ تعد الطعام مع الخادمة، وما أن نظرت الخادمة للعصفور حتى بدأت في الصراخ :

- اِلحقيني يا ست ملكة .. بنتك مسكت خفاش .

رغم صدمة الأم إلا أنها بهدوئها المعتاد تمالكت أعصابها وأخذت تقنع الصغيرة أن تطلق سراحه، كانت ملكة سيدة جميلة، تشبه الأتراك بعينيها الملونتين وشعرها الكستنائي المموج، كانت هادئة الطبع، محبة لأسرتها متفانية في خدمتها، وبالرغم من أنها تجاوزت عامها الثلاثين بعام واحد فقط، إلا أنها كانت تتمتع برزانة و رجاحة عقل يفوقان الكثير من نساء القرية اللائي هن أكبر منها .

اِعتادت الأسرة أن تجتمع حول طاولة الغداء في موعد عودة أبيهم من العمل، بعد أن قام بالإشراف على الحقول و متابعة سير العمل و أحوال الفلاحين .

كان السيد عبد الجليل في العقد الثالث من العمر، رجل ذو هيبة، طويل القامة، قمحي اللون، محب لأولاده، عاشق لزوجته، و بالرغم من أن زواجهما قد تعدى الثمانية عشر عاما إلا أنه لم يزل مُتيمًا بغرامها، مبدية للجميع، غير مبالٍ ، حتى أنه كان يحرص على أن يناديها "الست ملكة" إجلالًا منه لقدرها عنده و إعلاء لشأنها أمام الجميع بما في ذلك أبنائها .

ما أن اِلتفت الأسرة حول الطاولة حتى أخذت سناء (الابنة الكبرى) في معاونة أمها في غرف الطعام بالأطباق .

ملكة : -أم سيد (الخادمة) عايزة تقعد جنب بنتها اِكمنها على وش ولادة..مفيش واحدة منهم بتعمر ..غلبوني و الله .

عبد الجليل : حاضر..نوصي على غيرها .

- أبو علي كلمك بخصوص ميعاد الجواز ؟

- إذا كان عليهم يتمنوا الزفاف في أسرع وقت .. و هو فيه في البلد أجمل من سناء .. دول دافعين المهر مهرين .

اِبتسمت الأم ابتسامه فرح و فخر و قالت :

- على بركة الله ياسي عبده.. ربنا يبارك في عمرك ويخليك و تفرح بسمرا .

- و لكن زي ما اِتفقت معاهم .. مش عايزين فرح .

- و لو إني مش فاهمة السبب إلا إن الرأي رأيك و الشورة شورتك .

مرت الأيام في تجهيز الأغراض الشخصية للعروس، من ملابس و أدوات تجميل و عطور إلى أن جاء اليوم الموعود .

تجهزت سمرا لحضور كتب كتاب أختها ، و وقفت على استحياء قرب باب غرفة المسافرين (الصالون) حيث رأت الضيوف يتوافدون، و سمعت الزغاريد تتعالى، و رأت صوان الشربات تقدم .

كان العريس شابًا وسيمًا، يرتدي ملابس كأهل المدينه (البندر) ، و كان أبوه و أخته يجلسان إلي جانبه، لاحظت سمرا أن أخت العريس تتولى الحديث نيابة عن أخيها، و لفت اِنتباهها أن العريس يبدو حائرًا، فهو يقلب وجهه في أركان الغرفة تارة، و يثبت نظره في السقف تارة أخرى، بينما تعلو وجهه علامات الدهشة، لعله يتأمل غرفات الريف بتعجب لكونها حتمًا تختلف عن المدينة، و عندما حانت لحظة توديع العروس قالت سمرا :

- مع السلامة يا سناء .

فضمت سناء أختها الصغيرة و قبلتها بحنان ثم رحلت مع عريسها إلى المدينة.

هدأ المنزل و نام قاطنوه، إلا سمرا التي قضت ليلتها الأولى بدون أختها، و بالرغم من صغر عقلها إلا أن قلبها الأخضر الصغير الذي لم تلوثه الحياة بعد ، اِستشعر شيئًا غريبًا، فأخذت تتساءل في نفسها :

- لماذا لم يتحدث هذا العريس ؟ و لِمَ كانت نظراته زائغة طوال الوقت ؟

فهل كانت يقظة سمرا و قلقها ما هما إلا حزن على فراق سناء، أم أن فطرتها النقية اِستشعرت وجود خطر ما يهدد أختها ؟

الفصل الثاني

مرت الأيام على وتيرتها المعتادة، و ظلت سمرا تأنس بوحدتها كالعادة، تلعب في حديقة المنزل أحيانًا و تصنع الدُمى و الألعاب من بقايا الأقمشة و الصناديق الفارغة أحيانًا أخرى؛ فلم يكن لها أصدقاء من أطفال القرية نظرًا لاختلاف مستواها الاجتماعي عن المحيطين بهم من المزارعين المأجورين لوالدها . كانت ملكة دائمًا ما تحكي لابنتها عن أختها التي تعيش و زوجها في الإسكندرية ،و تعدها بزيارتهم؛ لتلعب سمرا مع أبناء خالتها، إذا سمحت الظروف .

كانت سمرا تسمع أن خالتها لها أربعة أطفال، ابنان و بنتان قد ورثوا الملامح الشقراء عن أمهم، الملامح التي لم ترثها من ملكة سوى سناء ابنتها الكبرى .

و في يوم من ذات الأيام شعرت سمرا بحركة غريبة في المنزل، وجدت أباها و أخواها في حجرة المسافرين، و رأت معهم سيده حادة الملامح، تذكرتها سمرا على الفور، إنها أخت زوج سناء، السيدة عفت، هرعت سمرا إلى حجرة أمها لتخبرها بحضور الضيفة، فما أن فتحت باب الغرفة حتى رأت سناء تجلس على السرير في حضن أمها و قد اِنهمرت في البكاء .

بالرغم من المفاجأة إلا أن الصغيرة أسرعت إلى سناء تحتضنها و تقبلها، فأخذت سناء في مسح الدموع عن وجنتيها علها تخفيها عن أختها، و هنا و قبل أن تبدأ سمرا في التساؤل سبقتها الأم قائلة :

- شوفي يا سمرا..هدومك اِتوسخت من اللعب.. روحي غيريها على ما أحضرلك تتغدي .

نظرت سمرا لأختها قائلة : متمشيش .

حاولت سناء أن تبتسم و ترد إلا أن صوتها تعثر، فقبلتها الصغيرة ونظرت في عينيها و ربتت على ذراعها في حنان و كأنما تواسيها، ثم هرعت لتغيير ملابسها .

لم تستطع سمرا أن تعرف سبب حزن أختها؛ لأن الجميع كانوا يحرصون على إبعادها عن المكان كلما بدأ الحديث، في المساء ذهبت سمرا إلى الحظيرة لتساعد سعدية الخادمة في تزغيط (إطعام) البط كما أمرتها أمها حتى ينتهون من الجلسة العائلية مع السيدة عفت .

سعدية : كدا يا سمرا، نحط الرز في حلق البط ، و نملس بإدنا على رقبته عشان نتأكد أنه بلعه .

أخذت الصغيرة حفنة الأرز و راحت تقلد سعدية، و بعد الانتهاء من إطعامه أمسكت سعدية بمسمار صغير أشبه بدبوس الرسم .

سمرا : إيه دا ؟

- نثبت قدمه في الأرض عشان مايتحركش، يقعد مكانه و يسمن بسرعة .

- بيوجعه ؟

- لاء ، ما بين صوابعه ميوجعوش .

على طاولة العشاء لاحظت سمرا ابتسامة سناء و جلوسها إلى جوار السيدة عفت، فأدركت بمكر الأطفال أن الأمور قد اِستقرت، و في صباح اليوم التالي غادرت سناء مع السيدة عفت إلى القاهرة مرة أخرى بعد أن وعدت سمرا بتكرار الزيارة، و في مساء نفس اليوم حضرت أم منعم لزيارة ملكة، هذه الجارة التي يعمل زوجها بالقاهرة مع حماء سناء، و هو من رشحها له في البداية كزوجة لابنه .

اِستقبلتها ملكة بالترحاب وأعدت لها القهوة، وجلست معها في غرفة المسافرين، بينما جلست سمرا خارج الغرفة على مسافة قريبة من الباب، و سمعت الحوار الذي لم تستوعبه جيّدًا وقتها .

ملكة : - هنعمل أية، ربنا عايز كدا .

- ما أنتوا عارفين من الأول .

- لاء ياختي و النبي ما كنا نعرف أنه للدرجة دي .

- إزاي بقي، .يعني أبوها مكنش يعرف، دا حتى أبو منعم مرسيه على كافة شيء من الأول.

- هو لو كان يعرف كان عمل في بنته كده ؟

- متنسيش إنه عريس غني و دافع مهر معتبر .

- لاء يا أم منعم .. دا سي عبده إستحالة يفكر كدا أبدًا .

عاد الأب إلى المنزل، فقبل جبين سمرا و أعطاها قطعة من الحلوى كعادته، ثم توجه إلى الغرفة، فرأى الضيفة و سلم عليها، لم تمكث أم منعم بعد حضوره سوى دقائق معدودة ثم اِستأذنت في الرحيل .

نظرت ملكة لزوجها نظرة عتاب و قالت :

- حقيقي أنت كنت تعرف بحالة الراجل من الأول ؟

- اللي كنت أعرفه قولته لك وقتها، إنه طيب و على نياته و فكره على أده شوية ، لكن مش للدرجة دي، هي سناء دي مش بنتي و أخاف عليها ، و الله ما كنت أرميها الرمية دي و لا بكنوز الدنيا .

- منها لله أخته، دارت عننا حالته و ضحكت علينا .

- الكلام دا فات أوانه .. دا دلوقتي جوزها .. المهم دلوقتي بنتك تسايس أمورها.. و زي ما قالت لك عفت إنها عايشة عيشة ملوكي و عندها الخير كله .

- و أيه فايدة العيشة الملوكي مع راجل عقله ناقص!! دي سناء بتقول لك مخه و لا عيل صغير..عيني عليكِ يا بنتي و على حظك، و تفر من عينيها دمعة تحاول أن تخفيها إلا أن صوتها المتلعثم يفضحها، ظلت سمرا تلعب كل هذا الوقت على باب الغرفة، و فهمت ما كانوا يخفونه عنها أن زوج سناء " طلع مش كويس و سناء زعلانة " .

ثم اِنتبهت الصغيرة على صيحة أبيها : يا سني يا سامر ..اِلحقونا يا ولاد .

نظرت سمرا داخل الغرفة لتجد أمها على الأرض مغمضة العينين بلا حراك .

.....

الفصل الثالث

هرع سني و من خلفه سامر إلى الغرفة، بينما تجمدت سمرا عند الباب و لم تستطع أن تقترب .

عبدالجليل : - اجري يا سمرا بسرعة هاتي الكولونيا من فوق .

هرولت الطفلة إلى غرفة أمها، و هي لا تشعر بالأرض تحت قدميها من شدة الخوف، و بيدين مرتعشتين أحكمت قبضتها الصغيرة على زجاجة العطر خشية أن تسقط منها، و بعد أن سلمتها لأبيها تراجعت خطوات لتلتصق بالباب في فزع مرة أخري.

كان وجه الأم شاحبًا كأنها شبح، فوضع الأب قليلًا من العطر في يديه و حاول أن يجعلها تستنشقه، و بعد ثوانٍ فتحت ملكة عينيها بضعف .

عبد الجليل : - الحمد لله .. تعالوا يا ولاد .. ساعدوني نطلع أمكم على سريرها.

و بعد أن اِستقرت ملكة على فراشها، نظرت لسمرا المراقبة للموقف عن بعد فقالت بصوت خافت ضعيف :

- تعالي يا سمرا .. متخافيش .. أنا كويسة .

تقدمت سمرا بخطى بطيئة، و لا يزال قلبها يرتجف و اِرتمت في أحضان أمها التي ظلت تملس بيديها على شعرها لتطمئنها، ثم جلس عبد الجليل بجوار زوجته و نظر إليها بحبٍ و رحمة و قال :

- بكرة إن شاء الله هاخدك للحكيم .

- حكيم أيه يا سي عبده .. الحمد لله أنا بخير..أنا بس حزنانة على سناء .

نظر الأب إلى عينيها الزرقاوتين المترغرغتين بالدموع، و ربت على كتفها بحنانٍ و قال :

- لازم نطمن من الحكيم .. هو إحنا عندنا أغلى منك ياست ملكة..اِرتاحي دلوقتي و الصباح رباح .

و في صباح اليوم التالي اِصطحب الأب زوجته إلى الطبيب ، بينما دخلت سمرا إلى المطبخ، فوجدت سعدية تحضر وجبة الغداء فقالت :

- هتعملي أيه عالغدا النهاردة ؟

-هعملكوا رز معمر و طاجن بط .

- بلاش بط و اِعملي فراخ عشان ماما عيانة و عايزة أعمل لها شوربة .

سعدية مبتسمة :

- و أنتِ عرفتي منين إن العيان بنعمل له شوربة ؟

- لما بكون عيانة ماما بتعمل لي شوربة .

- طب يا سمرا .. اِطلعي أنتِ و أنا هعملها حاضر..اِطلعي لأحسن النار تحرقك .

- أنا هعمل معاكي أول مرة و بعد كده هعملها لوحدي .

- أمري لله !

كانت سمرا، آخر العنقود، هي طفلة أبيها المدللة، و بالرغم من صغر سنها إلا أنها كانت دائمًا تحاول أن تكتسب ثقة والديها و تثبت لهما أنها يمكن الاعتماد عليها، و كان عنادها دائمًا ما يدفعها لتنجز المهام الصغيرة الموكلة إليها على أكمل وجه لتُحظى بمديح والديها و رضاهما .

قرب العصر عادت ملكة و زوجها من زيارة الطبيب الذي وصف لها بعض الأقراص المقوية، و طلب منها بعض التحاليل، ولكنها اِكتفت بأخذ الأقراص قائلة لزوجها :

- أنت صدقت إني عيانة ؟

مرت الأيام و مع الإلتزام بالراحة تحسنت صحة ملكة، و أخذت المقويات تغير لون وجهها الشاحب و ترد له لونه الوردي، و مع هذا التحسن اِرتاح قلب زوجها ظنًا منه بأن الخطر قد زال، و عادت الحياة لطبيعتها، سني و سامر في مدرسة القرية بالنهار، و سمرا تقضي يومها بين اللعب و مساعدة أمها في أعمال المنزل، و ما لبثت الأمور أن تتحسن و تعود لوتيرتها الأولى حتى جاء أبو منعم لزيارة عبد الجليل زيارة مفاجئة:

- مرحب يا أبو منعم.. أيه ياخويا الغيبة الطويلة دي ؟ جيت من مصر إمتى ؟

- لسة واصل النهاردة.. و قلت لازم أوصل الأمانة أول شيء ..دا مكتوب من سناء .

- إن شاء الله خير!

- عمومًا أنا مستعجل و ورايا مشاوير..أتوكل أنا على الله .

همّ أبو منعم بالانصراف تاركًا الخطاب لعبد الجليل الذي فتحه على الفور و لم ينصدم لما قرأه، فقد كان رحيل أبو منعم بهذه السرعة عنوان الرسالة، فماذا ينتظر من فتاة حسناء في السابعة عشر من عمرها مع زوج فاقد للأهلية و أخته المسيطرة في بيت واحد ؟ لم يكن الخطاب عبارة عن أسطر من الألم و

الشكوى و الدموع فقط، بل توسلت سناء لأبيها أن يحضر لنجدتها من السجن الذي وضعها به .

ثار سني قائلًا :

- لازم نروح لأبلة سناء يا بابا.. على الأقل يعرفوا إننا واقفين معاها ..لكن لما يلاقوها وحيدة هيظلموها زيادة .

- طيب إهدا يا سني يابني .. مش نستنى لما والدتك تشد حيلها شوية و نبقى نروح ؟

ردت ملكة في حزم و حماسة و هي تمسح دموعها :

- أنا شديت حيلي خلاص .

- طب هنقعد فين بس ؟ معقول ننزل في بيت الناس و إحنا رايحين نتشاجر معاهم ؟

سني : - ننزل على أبو منعم، و لا أقولك نطلب منه يأجر لنا شقة في مصر..و نقضي فيها أجازه الصيف، منها نبقى جنب أبلة سناء و منها نشوف مصر زي ما وعدتنا .

سامر: - يا ريت يا بابا .. و أهو فاضل أسبوعين و ناخد الأجازة .

و أضاف سني مستخدمًا دهاءه :

- و ماما تعمل التحاليل اللي كان طالبها منها الحكيم عشان نطمن عليها؛ لأحسن تتعب تاني .

رد عبد الجليل بصوت المحب هذه المرة، ناظرًا لزوجته في رقة :

- منقدرش على تعب الست ملكة ..خلاص يا ولاد هعدي على أبو منعم بالليل و اللي فيه الخير يقدمه ربنا .

دخلت سمرا الغرفة، و جلست على حِجر أبيها و سألت :

- نروح فين يا بابا ؟

فرد سامر :

- و أنتِ مالك .. دا كلام كبار .

فربت عبد الجليل على ظهرها في حنانٍ قائلًا :

- هاخدك تشوفي سناء ..أيه رأيك بقى ؟

ردت سمرا في سعادة بالغة و إبتسامة تعلو وجهها :

- هشوف سناء ؟!

فنظر إليها سامربغضبٍ :

- مش قولتلك اسمها أبلة سناء ؟

فرد الأب مدافعًا :

- عيلة صغيرة، ماتدجش عليها .

فمدت الطفلة ذراعيها لتحتضن أبيها و كأنها تلوذ به للحماية، فقد كان لها الحصن المنيع الذي يحوطها فلا يستطيع أيّ تهديد أن يصل إليها .

مرت الأيام و الأسرة تستعد للرحيل، و ظلت ملكة تحزم في الملابس و الأمتعة مما أعاد عليها أعراض الإعياء من جديد، إلا أنها كانت تتجاهلها في سبيل نجده ابنتها، و في مساء اليوم الموعود جلست ملكة في فراشها، تداري آثار التعب الذي تمكن منها، و تحاول أن تخفي ما عاد جليًّا للجميع و لا يخفي على أحد، فهذه السيدة الجميلة صارت تتحرك كامرأة في الستين و تلتقط أنفاسها المخنوقه مع كل مجهود يسير .

جاءت سمرا و جلست في الفراش مع أمها

فقالت ملكة بصوتٍ هامس ضعيف :

- مبسوطة يا سمرا ؟

- قوي يا ماما ..هشوف سناء ؟

ردت ملكة (و كأنها تحدث نفسها) :

- محسودة من يومها .

- يعني أيه محسودة يا ماما ؟

- يعني الناس بتحقد عليها عشان جمالها .

- و أنا مش جميلة يا ماما ؟

- إزاي بقى.. أنتِ قمر أربعتاشر .

- أنا شبهها ؟

- لا يا حبيبتي ..أنتِ خمرية، و شعرك إسود زي الليل، و مموج زي البحر .

عاد عبد الجليل من عمله و اِستعد للنوم و أخد يتجاذب مع زوجته أطراف الحديث المفُعم بالحبِ و الرحمة، فنعست سمرا في حضن أمها و هي تسمع صوت الدفء و الأمان يرن في أذنيها، في هذه الأثناء كان سني و سامر يستعدان للنوم في غرفتهما، فسأل سامر:

- تفتكر هنقضي الأجازه كلها في مصر و لا هنرجع بسرعة ؟

- الله أعلم.. بس مش عارف ليه حاسس إننا مش هنرجع هنا تاني أبدًا !

الفصل الرابع

بعد رحلة طويلة لا تخلو من المشقة، وصلت الأسرة للعنوان المذكور بمنطقة العباسية، فوجدوا أبو منعم في انتظارهم، دخل عبد الجليل الشقة مُمسكًا سمرا في يده و تبعته زوجته وأولاده، و أخذ أبومنعم يعرفهم حجرات الشقة حتى ينتهي حارس العقار و اِبنه من نقل الأمتعة .

عبدالجليل :- الله الله يا أبو منعم ، دي كاملة من مجاميعه ، تسلم ايديك .

- أنا اِشتريت لكم عفش، مطرحين النوم و البوتاجازمن الساكن اللي كان فيها قبلكم، أصله مسافر بلاد برة و مش محتاجه، أخدته بسعر لُقطة و حطيت لكم الكنبة دي من عندي، و كلها تلات شهور صيف مش هتحتاجوا أكتر من كده و لما تسافروا بالسلامة أبيع لكم الفرش و ترجع لكم فلوسه .

- دا كتير و الله .. كتر خيرك يا خويا .

- طب أستأذن أنا و أسيبكم ترتاحوا.. سلام عليكم .

- باقي كام على حسابنا يا أبو منعم (واضعًا يده في جيبه لإخراج محفظته العامرة)

- ما بين الخيرين حساب ياسي عبده.. و الباقي كلام فارغ، هحسبه و أقول لك عليه النوبة الجاية.

- طب الله يخليك بلغ الجماعة بزيارتنا بُكرة آخر النهار .. ما أنت عارف إن دا سبب نزولنا مصر في الأساس .

- ربنا يهدي الحال و يجيب العواقب سليمة .. هبلغهم حاضر .

مر اليوم الأول في ترتيب الأغراض ، و ظلت سمرا تساعد أمها التي كانت تتحامل على نفسها، إلا أن كلمه " آه " التي تخرج رغمًا عنها بين الحين و الآخر كانت تزلزل قلب الصغيرة، فكانت تردد خلفها في كل مرة :

- سلامتك يا ماما .. ربنا يشفيكي .

في اليوم التالي حان الموعد المرتقب، و ارتدى عبد الجليل أفضل ما لديه من الملابس و كذلك فعلت زوجته و قررا اِصطحاب سني معهم حيث كان يعتبر رجل البيت الثاني من بعد والده، و كان لا يخفي على الجميع اعتزاز والده برجاحة عقله التي يزينها أحيانًا الدهاء، كان أبوه يشعر بالفخر كلما رأى طوله الفاره و وسامته التي تتجلى بمظهر ذكوري حاد، و كان سني يسعى دائمًا على أن يبرهن لأبيه في جميع تصرفاته على أنه أهلٌ لهذا الفخر و هذه الثقة .

جلست سمرا تلعب إلي جوار أخيها سامرالذي ظل يتطلع من الشرفة بين الحين و الآخر مُترقبًا عودتهم، و مرت الساعات حتى نعست الصغيرة على الأريكة، و لم يوقظها سوى صياح سامر:

- سمرا ..سمرا.. الجماعة رجعوا .

جلست الأسرة على الأريكة، و وضعت سمرا رأسها على حجر والدتها و سمعت حديثهم الذي فهمت منه بضع كلمات :

" بنتي غالية عليا.. معدش ينفع..النصيب لحد كده " و كلمة جديدة على قاموسها و هي " الطلاق" ، ثم ذهبت في نوم عميق لتستيقظ في اليوم التالي على صوت آذان الظهر، و تجد نفسها في فراشها فقامت تبحث عن أمها :

- ماما.. ماما ..أنتِ فين يا ماما ؟

و لكن ملكة لم ترد عليها، فخرجت إلى الشرفة لتجد أمها تتطلع منها،

سمرا : - ليه مش بتردي عليا يا ماما ؟!

و ما أن اِقتربت سمرا من أمها حتى سمعتها تبكي فقالت :

ـ مالك يا ماما ؟

فلم تجبها الأم و لا حتى نظرت إليها و كأنها في عالم آخر، فنظرت الصغيرة من بين أعمدة سور الشرفة، فرأت سيارة أجرة محملة بالحقائب و الصناديق، و رأت إلى جوارها أباها و سني و سامر و الجميلة سناء .

.....

الفصل الخامس

مع الأيام بدأت الأسرة في تقبل الأمر الواقع، رغم صعوبة ذلك، فلم يكن من السهل أن تتحمل أسرة ريفية طلاق ابنتهم الشابة بعد أقل من عامٍ من الزواج . ظلت نظرات الأسى المصحوب باللوم في عيون سناء تطارد أباها كالسهام الموجهة، إلا أن حداثة سنها و حسن أدبها منعاها من البوح بما يمزق صدرها ، فأصبحت هذه الفتاة التي لم تكمل عامها العشرين بعد تشعر أنها النهاية .

لم تكن سمرا تستوعب سبب الحزن العميق الذي يعتري أختها و يخيم على كل من بالمنزل، لم يعنيها سوى أن سناء عادت لتنام معها تحت سقف واحد، و في عشاء يوم من الأيام جلس عبدالجليل مع ملكة في الشرفة يشربان الشاي، فسألته ملكة :

- هو إحنا لسه هنقعد في مصر يا سي عبده ؟ مش نرجع بلدنا أحسن ؟

- بتقولي أيه ؟ ننزل إزاي ؟ هو أنتِ لسه حللتي و لا كشفتي عند حكيم من بتوع مصر ..إذا أنتِ نسيتي أنا منساش أبدًا ..دا أنتِ الغالية يا ست ملكة .

- و النبي ما له لزمة و لا تكلف نفسك، لما نرجع البلد نروح للحكيم يكتب لي مقويات جديدة و كان الله بالسر عليم .

- و الله و لا يحصل أبدًا، أنا غاية ما هنالك كنت مستني الأمور تهدا شوية، من بكرا ننزل على المستشفى نعيد الكشف و نحلل .

و رشف رشفةً من الشاي ثم اِسترسل :

- ما أكدبش عليكِ في موضوع تاني شاغل بالي و بفكر فيه من قبل ما ننزل مصر .

- خير يا سي عبده !

- سمرا .

و هنا اِنتبهت الصغيرة و تركت لعبتها و نظرت إليهما، و معها أيضًا اِنتبه سني و سامر .

- أنتِ طبعًا عارفة إن مدرسة البنات اللي في البلد مش في المركز حدانا.. يعني تعتبر سفر.. و دي بنت مقدرش أسيبها تسافر زي إخواتها الصبيان، و العلام حلو، بفكر أقدم لها في المدرسة اللي جنب البيت هنا .

و هنا عقب سني :

- ما تدخل الكُتاب زي أبلة سناء و خلاص !

و لحقه سامر في غضبٍ :

- هي هتتساوي بالصبيان يا بابا .. هي أحسن من أبلة سناء في أيه ؟ ماتدخل الكُتاب زيها !

و أضاف سني بدهاء محاولًا أن يثني أباه عن قراره :

- و إحنا يا بابا مدرستنا في البلد و بيتنا و حياتنا، إزاي نسيب بيتنا المِلك و نيجي نسكن هنا بالإيجار؟

حاول عبد الجليل اِمتصاص ثورتهما قائلًا :

- يا ولاد معدلناش حاجة في البلد نرجع لها، بالعكس أمكم صحتها معادتش جاية على القعدة هناك، و سناء التغيير ليها أفضل و أهو ناظر الزراعة مراقب

الأرض تمام و الإيراد بيوصلنا و يعيشنا و يفيض و الحمد لله، و إذا كان على مدارسكم أهو العلام هنا أحسن مفيش كلام يبقى عايزين ترجعوا البلد ليه ؟

لم يعر سني بالًا لكل ما ذكر أبوه، و رد قائلًا:

- يعني يا بابا نسيب مدرستنا و أصحابنا عشان خاطرها ؟

و عندما وجد عبد الجليل ولديه لا يصغيان و لا يريدان أن يقتنعا فتكلم قائلًا :

- شوفوا يا ولاد، سمرا سِنها كِبر، عدت التمن سنوات يعني المدرسة ممكن ترفضها أصلًا أنا هقدم لها، و الله قبلوها نبقى نفكر، مقبلوهاش يبقى الموضوع اِنتهى .

سني : - يعني مصمم يا بابا ؟

عبدالجليل في حزم : - بنقول هنسأل، شوفتوني دخلتها خلاص ؟

مدت ملكة يدها لابنتها التي تجلس تحت قدميها، و أخذت تملس على شعرها في حنان و قالت و الابتسامة تملأ وجهها :

- هتدخلي المدرسة يا ست سمرا ؟! عشنا و شوفنا .

اِبتسمت سمرا لأمها، و لم تكن تعرف حينها إن كانت سعيدة أم لا، ألن ترى منزلها الكبيرالمحفور في قلبها، و حقلها الأخضر الواسع ؟ ألن تلعب مع الطيور و البط بعد ذلك ؟ ألن تأكل الفطير الساخن والمش والقشطة كل صباح ؟ أسئلة جالت بخاطرها و لم تصرح بها .

في صباح اليوم التالي اِستيقظ عبد الجليل و زوجته و توجها للمستشفى، و كعادته اصطحب معه سني .

قامت سناء بإعداد الغذاء و ساعدتها سمرا، ثم جلستا في الشرفة في اِنتظار عودة والديهما اللذان تأخرا حتى اِعترى الجميع القلق، و قرب آذان المغرب

رن جرس الباب، فذهب سامر مُسرعًا ليفتح الشرعة، فوجد رجلًا لم يره من قبل، نظر إليه الرجل و قال بصوتٍ جاد :

إنده لي حد كبير يا شاطر.

.....

الفصل السادس

دخل سامر مُسرعًا لينادي سناء و قال هامسًا :

- أبلة سناء ، راجل معرفوش عند الباب !

توجهت سناء للباب، و نظرت من الشرعة المفتوحة، فرأت رجلًا يبدو أنه في العقد الثالث من العمر، يرتدي بدلة أنيقة، لفت نظرها شعره الحريري الممشط للخلف و المثبت بالفازلين مثل نجوم السينما، حدق الرجل في وجه سناء مما جعلها تخجل و تصرف عينيها العسليتين عنه، و قالت بصوتٍ رقيق :

- نعم، حضرتك مين ؟

- مساء الخير.. ممكن أقابل الأستاذ عبد الجليل ؟

- بابا خرج .. لما يرجع أقول له مين ؟

- طيب هيكون موجود إمتي عشان أمر عليه مرة تانية ؟

رفعت سناء عينيها، فالتقت نظراتهما من جديد و أكملت :

- مش عارفة هيرجع إمتي و الله ..تحب أبلغه حاجة ؟

- متشكر..هعدي عليه مرة تانية .. يا آنسة ؟

لم ترد سناء على سؤاله و اِكتفت بالصمت حتى اِضطر أن يقول :

- طيب مع السلامة .

حيته سناء بإيماءة خفيفة برأسها مع ابتسامة رقيقة .

مال هذا الوسيم كاد أن ينسيها برقته انتظارها لوالديها و قلقها عليهما ! و بعد طول انتظار عاد الوالدان من المستشفى بعد يوم من العناء و الإرهاق .

سناء :- خير يا ماما طمنينا .

ملكة :- كل حكيم يحولنا لحكيم غيره و تحاليل و إشاعات لما هلكنا يا بنتي، و في الآخر قالوا لنا لما نتايج التحاليل تطلع تيجوا تستلموها و نوصف لكم العلاج.

سخنت سناء الغذاء الذي صار عشاء و أخبرت والدها عن الغريب الذي حضر ليسأل عليه، و لكنه لم يهتم حيث أن الإرهاق و القلق كانا يسيطران عليه .

بعد مرور يومين عاد الغريب ليطرق باب الأسرة من جديد، فقابله عبد الجليل و جلس معه ما لا يقل عن ساعة، و بعد انصراف الضيف اِلتف الجميع في فضول يسألون عن سبب الزيارة .

عبدالجليل :- الراجل قريب الجيران في العمارة اللي قدامنا، و كان بيفكر يشتري عزبة فكان بيستشيرني .

ملكة :- و هو عرف منين إنك بتفهم في الأرض و الزراعة ؟

رد عبد الجليل مازحًا :

- هو أنا يعني عشان لبست أفرنجي يبقى مش باين عليا إني فلاح ؟

ثم أكمل مُغيرًا الموضوع : المهم بكرا بإذن الله هنزل أقدم لسمرا في المدرسة و لو قبلوها ألحق أنقل أوراق إخواتها قبل السنة الدراسية الجديدة .

- ربنا يخليك لنا و لا يحرمناش منك أبدًا يا سي عبده .

و بالفعل نجح عبد الجليل في إلحاق ابنته بالمدرسة بالرغم من سنها الذي قارب التسع سنوات، و سارع أيضًا بنقل أوراق ابنيه لمدرسة جديدة، و هكذا أصبح قرار النزوح إلي القاهرة نهائي لا رجعة فيه، و صارت هذه الشقة هي السكن الأساسي للأسرة، و أصبح منزل القرية بمثابة إستراحة تستغل في

الأجازات .

تبدل حال كل شيء إلا الحقل، فلم يزل المصدر الأساسي والوحيد لدخل الأسرة ، و بالرغم من أنهم هجروه إلا أنه ظل باقيًا على عهده معهم مُغدقًا عليهم بخيره و عطاياه .

كانت ملكة مع تدهور حالتها الصحية تصر أن يحمل عبد الجليل سمرا من فراشها لتنام في حضنها كل ليلة، فتحتضنها بشدة و تقبلها و كأنها تقول للدنيا:

" هأنذا .. أحكم ذراعي عليها .. فكيف لك أن تبعديني عنها ؟ "

و تظل الأفكار تتخبط برأسها، فيعتريها اليأس تارة و الرجاء تارة أخري، و تسيل من عينيها دمعة و تنزل على وجه ابنتها النائمة في حضنها، فتنظر للسماء و كأنها ترجو القدر أن يمهلها لتربي ابنتها الصغيرة .

.....

الفصل السابع

اِستيقظت سمرا في اليوم التالي على صوت أمها وهي تستعد للذهاب للمستشفى

سمرا:- رايحة فين يا ماما ؟

عبدالجليل :- ماما رايحة تاخد حقنة مقويات في المستشفى يا سمرا .

- متتأخريش يا ماما زي المرة اللي فاتت .

و لم تكن إلا ساعات قليلة حتى عادوا من المستشفى، وبالرغم من أنهم لم يتأخروا، إلا أن علامات الإعياء كانت بادية على ملكة، حتى أن سني كان يسندها و كأنه يخشى أن تتعثر و تسقط .

أقبلت سمرا ترحب بأمها و تطمئن عليها :

- مالك يا ماما ؟ هي الحقنة وجعتك ؟

مدت ملكة يديها لتحتضن فلذه كبدها و لم تنطق بكلمة، فقد كانت دموعها الحارة التي اِنهمرت على وجنتيها ردًا كافيًا .

فقالت سمرا و هي تحيط أمها بذراعيها الصغيرتين :

- معلش يا ماما.. دلوقتي تخفي ..أنا عملت لك شوربة .

مد الأب يده ليربت على ظهر زوجته في حنانٍ قائلًا :

صلي على النبي أومال، بُكرة تبقى زي الفل.. بُكرة أفكرك .

لاحظت سمرا دخول سني لغرفته حيث لحق به سامر و سناء

فذهبت بهدوء لتسمع همسهم الذي اِسترقت منه كلمة "سرطان"، و منذ هذا اليوم المشؤوم بدأت الرحلة الأسبوعية للمستشفى، لتلقي العلاج، و خيّم الحزن على البيت، و صارت الأيام تمر ثقيلة، فبالرغم من العلاج المستمر إلا أنه لم يكن هناك أيّ تحسن ملحوظ في حالة ملكة .

و في وسط هذه الظروف القاسية، طلب الأب من الأسرة الإستعداد لمقابلة ضيوف قادمين للزيارة .

سألت سمرا أخاها سني :

- مين الضيوف اللي جايين ؟

فرد سامر:

- و أنتِ مالك ؟ إذا كنا إحنا رجالة و مسألناش !

سني :- أكيد ضيوف جايين يتطمنوا على صحة ماما .

و في الموعد المرتقب فوجىء الجميع، و بالأخص سناء، بأنه الرجل الوسيم ، أملس الشعر الذي جاء من قبل، و معه أخته و أخيه الأكبر، فسلم الأولاد على الضيوف ثم ذهبوا لحجراتهم، و بعد انتهاء الزيارة، دخل الأب على سناء و جلس إلى جوارها و قال :

- الأستاذ حسن قريب الجيران كان جاي يطلب إيدك يا سناء .

اِحمر وجه سناء خجلًا و لم تدر ماذا تقول، فنظرت إلى الأرض في استحياء .

- استني لما تعرفي ظروفه و بعدين تقرري، أنا يا بنتي مش عايز أشيل ذنبك تاني، بصراحة الراجل مكانش عارف إنك سبقلك الجواز، و لما جالنا قبل كده صارحته، هو يا بنتي عنده خمسة و تلاتين سنة، و سبقله الجواز من بنت خالته ، و عنده منها ولد و بنت عايشين مع أمهم، هو راجل ميسور و عنده

عيادة مجبراتي في الحسين، فاتحها شرك مع أخوه الكبير، فكري على مهلك يا سناء و قوليلي إذا كنتِ تحبي تتعرفي عليه و لا أقوله مفيش نصيب ؟

لم تفكر سناء طويلًا، فقد كانت وسامته الأخاذة و حالته المادية كافيتين ليجعلاها توافق على الخطبة، و بالطبع وضعها الحالي كونها مطلقة جعل العريس بالنسبة لها فرصة ذهبية، أما عن سمرا، فقد حان موعد الالتحاق بالمدرسة، فاستيقظت مبكرًا و اِرتدت زيّها في سعادة غامرة، و نزلت من البيت ممسكة بيد سني، ليوصلها في طريقه إلى مدرستها التي تبتعد عن البيت بشارعين فقط .

كانت سمرا أكبر الأطفال سِنًا في الفصل، و لكنها ما أن بدأت الدراسة حتى صارت تلميذة مجتهدة، تذاكر كل الدروس، و تنهي الواجبات المنزلية في موعدها المحدد، و بالطبع كانت سناء تساعدها فيما تعذر عليها فهمه، و مع مرور الأسابيع الأولى، تعلق قلب سمرا بزميلاتها و معلماتها، فوجدت معهن الصحبة التي لم تعرفها يومًا، و العوض عن طيورها الأليفة و حقولها الخضراء التي ظلت ذكراها محفورة في قلبها .

.....

الفصل الثامن

في هذه الأثناء تمت خطبة سناء للسيد حسن، لا تذكر سمرا كثيرًا عن هذه الأيام سوى زيارات السيدة راجية، جارتهم و قريبة العريس، التي كانت تحضر لمساعدة ملكة في التبضع لتجهيز العروس بعدما علمت بمرضها، و أصبحت لها راجية في فترة وجيزة نعم الأخت و المعين، تذكر أيضًا يوم حضر العريس و المأذون، و توديعها لأختها للمرة الثانية، و لكنها هذه المرة لن تفتقدها حيث أن سناء تسكن نفس المحافظة و أيضًا لأنها وعدت و زوجها بزيارات أسبوعية منتظمة نظرًا لحالة أمها الصحية، بالرغم من بعد المسافة، فقد كانت شقة العريس في منطقة شبرا .

و بعد مرور أيام، ذهبت الأسرة لزيارة العروس، كانت سناء تسكن في شقة بالدور الأرضي، و كانت لها حديقة صغيرة جميلة مما ذكر سمرا ببيت البلد و حديقته، إلا أن الأثاث هنا بدا مختلفًا، فهو جديد و لامع و مبهر .

أقبلت العروس للترحاب بأهلها و قد اِزدادت جمالًا فوق جمالها و زانتها إبتسامة الرضا و السعادة .

و بعد شرب الشاي قال عبد الجليل :

- يعني مكنتش أخدت سُكنة جنبنا في العباسية ؟

- متنساش يا عمي إن أولادي في شبرا و أفضل أكون قريب منهم، انفصالي عن أمهم لا يعني انفصالي عنهم، و هما ليهم عليا حقوق .

- و نعِم الرجال يا ابني و الله، و هي شقتهم قريبة من هنا ؟

- قريبة .. محطتين أوتوبيس .

ملكة : - و عندهم سلاملك بجنينة حلوة زي دي كدا ؟

رد حسن بإبتسامة تنم عن الحكمة و الذوق :

- ما هم الولاد هييجوا يلعبوا هنا، عشان لما ربنا يرزقنا بإخوات لهم يتعودوا يلعبوا مع بعض .

- وضرتها هتوافق على الكلام دا ؟

- دي مش ضرتها، دي أم أولادي و بنت خالتي عمومًا لما تعرفيها هتفهمي قصدي .

لم ترد ملكة أن تدخل في جدال ، إلا أنها كانت تعلم علم اليقين أن الزوجة السابقة لن تتركهم في حالهم دون إثاره المتاعب، و لكنها فضلت الصمت لكي لا تثير ما هم في غنى عنه الآن .

مرت الزيارة بسلام ، و اِرتاح بال عبد الجليل عندما رأى الخير الوفير في بيت ابنته، و رأى بعينيه كرم حسن الذي لا يوصف و خلقه الذي ينم عن البيئة الصالحة التي نشأ فيها، فنام عبد الجليل في ليلته قرير العين، مطمئن البال، أما ملكة فظل مديح حسن لزوجته السابقة و رغبته في إحضار أبنائه، يعكران صفو ليلتها، فهي تخاف على مستقبل ابنتها و لم تعد تتحمل المزيد من الصدمات .

اِعتادت سمرا أن تدخل المطبخ فورعودتها من المدرسة فتساعد هنية (الخادمة) و تشرف عليها بدلًا من أمها المريضة، فتتعلم كل ما تستطيع أن تعمله يداها الصغيرتين من أصول الطهي و أسراره، فلم يكن دخول المطبخ بالنسبة لها واجب تؤديه على مضض، بل كان هوايتها المفضلة، و كانت رغم حداثة سنها تستطيع أن تحفظ وصفات إعداد الأكلات الريفية

المختلفة مثل الأرز المعمر، و برام البط بالفريك و الفطير المشلتت و طبعًا لم تنس يومًا أن تعد الشوربة لوالدتها التي كانت لا تأكل غيرها إذا ما اشتد عليها المرض، و بعد أن أصبح الوهن يسيطر على ملكة، زادت مسؤولية جديدة على كاهل سمرا، فلم تعد فقط تعد الشوربة و لكنها صارت تحمل الطبق و تذهب لتجلس بجوار أمها في الفراش و تسقيها بيديها الصغيرتين و تقول :

- عملت لك الشوربة يا ماما .

- شبعانة يا سمرا

- شوية صغيرين عشان تِخِفي .

و بعد عدة ملاعق يسقط منها ما يسقط على الفوطة التي وضعتها سمرا على صدر أمها، تسمع سمرا صوت أمها الواهن يقول :

- ربنا يخليكي يا بنتي .

فانحفرت هذه الكلمات بصوت ملكة الخافت في خُلد سمرا و فؤادها للأبد، وفي خضم هذه الظروف العصيبة، انقطعت زيارات سناء، فظن الأب أنها اِعتمدت علي وجود هنية معهم، إلا أن ملكة لم تستطع أن تمنع نفسها من القلق على اِبنتها و ظلت الظنون تلعب برأسها حتى نقلت هذا القلق لزوجها الذي قرر الذهاب ليطمئن على اِبنته، و لكن القدر لم يمهله حتى يذهب طواعية، ففي مساء ذلك اليوم رن جرس الباب، فإذا بالطفل وحيد ابن السيدة راجية يقول :

- ماما بتقولك يا عمو إن أبلة سناء عايزاك تعدي عليها ضروري .

- خير يا وحيد..مقالتش عايزاني ليه ؟

- لا يا عمو، ماما كانت بتزورهم النهارده و أبلة سناء طلبت منها تبلغك .

سمعت ملكة الحديث من فراشها، فقالت في قلق :- سترك يا رب .

الفصل التاسع

في اليوم التالي اِستعد عبد الجليل لزيارة ابنته، و كعادته أخذ معه سني الذي صار يرافقه كظله في كل مكان، و عندما وصل إلى منزل حسن اِستقبله بابتسامته و ذوقه المعهود، فلم يلبث كثيرًا حتى سأل عن سبب استدعاءه .

فقال حسن :- تشرب أيه يا عمي ؟

- متتعبوش نفسكم إحنا مش ضيوف، أومال سناء فين ؟

- تعبك راحة .

و في غضون دقائق معدودة تم تقديم الشاي، و لكنها ليست سناء التي قدمته، إنها سيدة أخرى، تبدو و كأنها أكبر من سناء ببضعِ أعوام، بيضاء البَشرة متناسقة القوام، اِبتسمت قائلة:

- اِتفضل يا عمي .

و عندما اِستشعر حسن السؤال في عينيّ عبد الجليل، عرفه عليها قائلًا:

- أم إسماعيل، ابني ..كتر خيرها جاية تطمن على سناء .

لم يستطع عبد الجليل أن يخفي اِستعجابه الشديد، فلم يدر ماذا يقول، هل يشكرها و يرحب بها، أم يعتذر لها لزواج ابنته من زوجها السابق، و لكنه اِكتفى بابتسامة عجيبة أقرب للذهول منها للابتسام، و هنا أنقذه حسن بكياسته المعتادة و عقب قائلًا :

- مبروك يا عمي ..كام شهر و نقولك يا جدو .

لم يتمالك عبد الجليل نفسه من شده الفرح، فقام مُسرِعًا إلى غرفة سناء، فبارك لها و قبّل جبينها و في غضون لحظات أخذ سني، و اِستأذن قائلًا :

- لازم أرجع بسرعة أطمن، الست ملكة و أبشرها، زمانها مستنية على نار.

اِستقبلت ملكة الخبر بابتسامة رقيقة من عينيها الذابلتين، و قالت :

- ياما أنت كريم يا رب .

في الأشهر التالية قلت زيارات سناء، إلا أن عبد الجليل كان يحرص على أن يزورها مع إخوتها ليطمئن عليها من حين لآخر، و هناك تعرفت سمرا على إسماعيل وزينب أولاد السيد حسن .

كان إسماعيل في عمر سمرا و كانت زينب في الخامسة من عمرها، تذكر سمرا ذلك اليوم الذي صنعت فيه سناء لها دمية من القماش مثل التي صنعتها لزينب، و تذكر عودتها مسرعة، لتجلس في فراش أمها لتريها دميتها الجديدة،

تبسمت ملكة و ملّست على شعر الدمية المصنوع من الخيوط السوداء و قالت :

- شعرها إسود زي شعرك ثم تحسست عينيّ الدمية المصنوعتين من الأزرار السوداء و قالت :

- و عنيها سودة زي عنيكِ .

- حلوة يا ماما ؟

ردت ملكة و هي تتأمل وجه ابنتها بابتسامة انكسار و استسلام :

- حلوة زيك .

اِقترب العام الدراسي من الانتهاء، فاِستعدت سمرا للامتحان، و لم يكن مرض أمها يمثل عائقًا لها بل كان دافعًا للنجاح علها تدخل السرور على قلب أمها، و

في آخر يوم للامتحانات، عاد الأولاد الثلاثة من المدرسة، ليجدوا السيدة راجية في انتظارهم أمام المنزل لتصتحبهم إلى منزل سناء، فسأل سني :

- في أيه يا طنط راجية .. هو بابا و ماما فين ؟

راجية :

- راحوا مشوار يا حبيبي و أنا هوصل لكم لسناء لحد ما يرجعوا.

و عند وصولهم إلى بيت سناء التي شارفت على موعد ولادتها، قالت :

- مش عارفة أشكرك إزاي يا طنط راجية .

- لا شكر على واجب يا بنتي .. ربنا يطمنكوا عليها و يردها لكم بالسلامة .

فهمت سمرا من سياق الحديث أن أمها بالمستشفى، و لكنها كانت واثقة من أنها سوف تعود مثل كل مرة، لتحتضنها و تقبلها قُبلة تنسيها ألم الفراق، إلا أنها اِستيقظت في صباح اليوم التالي على صوت بكاء سناء، فأسرعت بالقفز من الفراش، لتجد سناء ترتدي ثوبًا أسودًا، و إلى جانبها حسن يسندها ليهمان بالخروج، ناد حسن الصبيين قائلًا:

- سني و سامر جاهزين يا ولاد ؟ سمرا حبيبتي استني هنا مع أم الخير لحد ما نرجع .

لم تنطق الصغيرة، و لم تطلب الذهاب معهم، و لم تسأل، فقد أخبرتها الدموع المنهمرة من أعين الجميع بالحدث الجُلل، اِمتثلت سمرا للأمر و توجهت لغرفة النوم من جديد، فدخلت في غطائها و اِحتضنت دُميتها، ثم ملست على شعرها و لمست عينيها و سمعت صوت ملائكي خافت يرن في أذنيها :

" حلوة زيك ".

الفصل العاشر

ظل الحزن يخيم على منزل السيد حسن، و لاحظ الجميع عدم سؤال سمرا عن أمها، و بينما كانوا يصرون على إخفاء الحقيقة عنها، كانت هي بداخلها تسخر من استخفافهم بعقلها، و بعد أسبوع من الحِداد عادت سناء ذات يوم من شقه العباسية بحقيبة تحمل بداخلها ملابس سمرا

- أنتِ جبتي هدومي ليه يا سناء ؟ هو أنا هقعد هنا ؟

- آه يا حبيبتي ..هتقعدي هنا عشان أنا و أبيه حسن منقدرش نستغني عنك.. مش أنتِ مبسوطة معانا ؟

أومأت سمرا برأسها بابتسامة، و مدت ذراعيها فاحتضنت أختها الكبرى التي صارت أمها الصغيرة .

قام عبد الجليل بنقل أوراق المدرسة الخاصة بسمرا إلى مدرسة قريبة من منزل حسن، و بالرغم من أنه لم يكن يومًا قاسيًا عليها، إلا أن عطفه و تدليله لها قد ازداد بعد أن صار يشعر أنها حرمت من حنان أمها في سن مبكرة .

لم يمر الشهر حتى وضعت سناء مولودها الأول (حسين)، فكم من عظائم الآلآم يداويها القدر، فتبدلت الدموع إلى فرح، و التعازي لتهاني حتى سمرا صارت تستكشف هذا الكائن المدهش الصغير و تعين أختها في رعايته، و بالرغم من أنها تكبره بعشر سنوات فقط ، إلا أن نضوجها المبكر جعلها أهلًا للثقة، فقد كانت سناء لا تأمن عليه إذا أرادت أن ترتاح قليلًا إلا إذا كان بين يدي سمرا.

مع مرور الأيام زاد تعلق السيد حسن بسمرا، فلم تكن بالنسبة له أخت زوجته فقط بل صار يشعر أنها ابنته الرابعة، و لم يكن يبالي كثيرًا للمصروف الشهري الذي يرسله عبد الجليل، فكان يغدق عليها كما يغدق على باق أبنائه، و لم يشعر يومًا أو يشعرها بأنها غريبة عنه .

كان السيد حسن هو رحمة الله التي وهبها لهذه الطفلة لتستقر حياتها مرة أخرى، تذكر سمرا جيّدًا عودته للمنزل مساء بعد العمل، ليجد سناء و سمرا جالستان في الفراش يحاولان تهدئة حسين لينام، فينظر لهما بابتسامته الحنونة و يقترب من الفراش ليحيط ثلاثتهم بذراعيه في حضن دافىء .

و تمر الأيام في منزل السيد حسن كالحلم الجميل، فعندما بدأ إخوته في التردد على المنزل مصطحبين أبنائهم، وجدت سناء فيهم الأصدقاء الذين افتقدت وجودهم في حياتها من قبل، و وجدت سمرا من هم في مثل عمرها فصارت تنتظر زيارتهم بفارغ الصبر، حتى حسين المولود الصغير كان له بينهم من هم في عمره ليكبر و يشب معهم، و في هذه السنوات سطر التاريخ أجمل الذكريات التي نقشت في القلوب الطيبة للأبد .

صار يوم الخميس من كل أسبوع هو يوم تجمع العائلة في منزل السيد حسن لاتساعه و وجود حديقة ملحقة به يلعب بها الأطفال، و كانت سمرا تساعد في إعداد الوليمة الأسبوعية في بيت الكرم، و من ثم تنتظر حضور أبيها و أخويها و حضور إخوه السيد حسن و أبنائهم في سعادة غامرة، و قبل حضور الضيوف يعود السيد حسن للمنزل بأكياس الفاكهه الطازجة و أكياس التسالي و المكسرات من المقلة ، ثم تتعالى الضحكات، و تتداخل المناقشات، و يعلو صوت الأطفال بين لعب و صراخ .

كانت سمرا تتسلم حسين من أمه ليلعب معها هي و الأطفال و تعيده آخر اليوم سالمًا بعد أن قضى وقتًا سعيدًا، أصبحت سمرا بمثابة تميمة الحظ في هذا المنزل، فرعايتهما لهذه الطفلة جعل أبواب الرزق تنفتح، فانهمرت الخيرات على السيد حسن وذاع صيته و ازداد عدد الزبائن المترددين على العيادة، و أيضًا لم يمر عام حتى رزقه الله بمولوده الثاني من سناء، و بما أن هذه الفترة كانت العصر الذهبي للسيد حسن و كان ينعم بعز عظيم، فقد قرر أن يسمى المولود الجديد (عز).

و أضافت سمرا عز على قائمة مسؤولياتها، فقد كانت تحبه و ترعاه مثل أخيه الأكبر.

نضجت الصغيرة و نضجت معها هوايتها في الطبخ و إعداد الطعام و تزينه، و كلما ازداد شغفها بالطهي ازدادت خبرتها التي تستقيها من كل من حولها و أولهن سناء التي علمتها أيضًا فن التفصيل و صنع الملابس و الحُليّ، فبهذا العهد كان تفصيل الملابس بالمنزل أو عند الخياطة هو العُرف السائد بين الناس قبل انتشار الملابس الجاهزة .

كان عبد الجليل يهتم بالزيارة الأسبوعية، ليطمئن على صغيرته سمرا، أما عن زراعته و أحواله المادية، فقد كانت أموره على خير ما يرام، فصار يمتلك ثلاثة عشر فدانًا من أجود الأراضي الزراعية، و كان يحرص على أن يأخذ سني و سامر و سمرا معه لزيارة البلد كل أجازة صيفية ليبقى على انتمائهم لمسقط رأسهم، و ليعلم ولديه طريقة الحفاظ على مالهم من أول الزراعة، لجني المحصول و جمع الإيراد .

حصلت سمرا على الشهادة الإبتدائية و انتظرت زيارة أبيها الأسبوعية لتبلغه خبر نجاحها و تأخذ منه هدية النجاح، و لكن من حضر هذه المرة كان سني وحده، حضر ليصطحب سناء و زوجها لزيارة عبد الجليل الذي داهمته أزمة صحية على حين غفلة و تم نقله لطواريء مستشفى المنيل الجامعي، و عندما أصرت سمرا على الذهاب معهم، رأف حسن بحالها و لم يتركها.

في المستشفى تم تشخيص الحالة بأنها فتاء منعقد و تم الزج بالأب إلى غرفة العمليات على وجه السرعة، بينما وقفت سناء و أختها الصغرى تبكيان أبيهما و تنتظران خروجه من غرفة العمليات بفارغ الصبر، خرج الطبيب و أمر بعدم زيارة المريض نظرًا لأن حالته حرجة و طلب منهم العودة في اليوم التالي .

عاد الجميع حتي سني و سامر، لمنزل شبرا لقضاء ليلتهم سويًّا و الخروج مُبكرًا للمستشفى .

دقت سمرا باب غرفة سناء و أذن لها بالدخول، فوقفت عند باب الغرفة كالتائهة، فقالت سناء:

ـ مالك يا سمرا ؟

ردت سمرا بصوتٍ مرتعش متلعثم :

ـ هو بابا هيموت ؟

فتحت سناء ذراعيها قائلة :

ـ تعالي يا حبيبتي، متخافيش يا سمرا .

و ظلت تملس على شعر أختها و تردد :

ـ بسم الله الرحمن الرحيم، و نظر حسن بشفقة لسمرا و قال :

ـاللهم إنا لا نسألك رد القضاء و لكن نسألك اللطف فيه.

.....

الفصل الحادي عشر

مع شروق شمس اليوم التالي، توجه الجميع إلى المستشفى، وقف حسن مع الطبيب هو و سني، على مسافة من باق الأسرة، و عندما انتهى الحوار عادا ليطمئنا الجميع إلا أن الدمع المترقرق في عينيّ سني قد أفصح عما يحاولان إخفاءه .

دخل الولدان للاطمئنان على أبيهما، فأوصي سني برعاية أخيه الأصغر، ثم دخل حسن و معه سناء فأوصاهما بسمرا خيّرًا، و أخيرًا دخلت سمرا لتجد أباها في حال يرثى له، وجدت خراطيم معلقة بجسده من جميع الجهات، ففزعت الفتاة من هول ما رأت و بدأت تنهنه بالبكاء، فرفع الأب يده في مشقة ليمسك يدها و ما أن لامسها حتى نزلت سمرا على ركبتيها إلى جانب فراشه و قبلت يده قُبلة حب و إجلال، فقال بصوتٍ واهنٍ :

- الله يحفظك يا بنتي .

- سلامتك يا بابا .

قالتها و نحيبها يتعالى، و هنا دخلت الممرضة و أمرت بإنهاء الزيارة و إخلاء الغرفة، ظلت سمرا تمسك بيد أبيها رافضة

الامتثال للأمر حتى دخلت سناء و أقامتها من الأرض و ربتت على كتفها قائلة :

- تعالي يا سمرا.. تعالي يا حبيبتي .

و في هذه الليلة عندما عادت سمرا إلى المنزل تذكرت دميتها القديمة التي رافقتها من قبل في أحداث مشابهة، فذهبت إلى دولاب الملابس و أخذت تبحث عنها حتى وجدتها، فأدخلتها معها في الفراش، و مدت يدها فلامست عينيها و ملست على شعرها و هي تبكي حتى غلبها النُعاس من شده التعب .

اِستمر العزاء لأسابيع في منزل السيد حسن حيث حضر جميع الأهل و المعارف من القاهرة و البلد لمواساة الأسرة في مصابهم الأليم، و بالرغم من حزن سمرا الشديد لفراق أبيها و بكائها المستمر، إلا أنها لم تشعر لحظة بأنها صارت يتيمة، فقد كان السيد حسن مصدر الحماية و الدفء و الحنان و خير بديل للأب الذي رحل و لم يشعرها يومًا أنها ضيفة في منزله أو أنه يتفضل عليها برعايته لها .

كان السيد حسن رجل قل وجوده في هذه الدنيا، بالفعل كان نِعم الرجال، و كعادتها الحياة لا تتوقف لرحيل أحد، فعادت إلى مسارها المعتاد، و اِلتأمت الجروح و جفت الدموع و عاد سني و أخوه إلى شقة العباسية، و يومًا بعد يوم عادت الإجتماعات الأسرية الأسبوعية و رجعت الإبتسامة تملأ هذه الدار بعد أن فارقته لعدة أشهر .

و في يوم من الأيام جلس حسن مع زوجته و قال لها :

- نفسي ولادي يكونوا مع بعض .

- ما هما بيتقابلوا و يلعبوا .

- الواحد مش ضامن عمره .. نفسي أشوفهم بيكبروا سوا .

- ربنا يطول في عمرك .. هو إحنا نقدر نعيش من غيرك .

- بفكر في موضوع شاغلني من فترة، لو نفع أنا متأكد أنك هتوافقي .

اِبتسمت سناء في قلق ولم تلح في السؤال .

الفصل الثاني عشر .

فاتت سنوات منذ هذا الحديث إلا أن فكرة لم شمل الأسرة في مكان واحد ظلت تراود السيد حسن و ظل يحلم بتحقيقها حتى اقتنص فرصة مناسبة و استدعى سني الذي صار في الثانية و العشرين من عمره، و أصبح يدرس في معهد السياحة والفنادق و سامر الذي صار في العشرين من العمر و قد اِلتحق بكلية الحقوق .

حضر الشابان بملابسهما الأنيقة و عطرهما الفواح، فقد أصبح إيراد الأرض الزراعية خالصًا لهما، بعدما تكفل السيد حسن بسمرا كفالة كاملة .

جلس السيد حسن ليتحدث لسني و سامر و طالت الجلسة حتى سمعتهم سناء يهمان بالانصراف و سمعت صوت زوجها يقول:

- اتفقنا .. خلال يومين هرد عليكم .

سألت سمرا :

- هما سني و سامر عايزين أيه يا أبيه حسن؟ سمعتهم بيتكلموا عني .

- طلبت منهم سحب أوراقك من المدرسة دي لأني لقيت مدرسة أحسن منها بكتير.. أيه رأيك يا ست سمرا ؟

ردت سمرا في ذهول :

- يعني هسيب أصحابي ؟ طيب يعني هي أحسن بكتير؟

- هتشوفي و تحكمي بنفسك ..أنا كنت عاملها لك مفاجأه .. بس أنتِ حرقتيها .. و عِقابًا لكِ روحي حالًا اعملي لي فنجان قهوة.

ضحكت سمرا :

- حاضر .

حضرت سناء عندما علمت بالأخبار و سألت :

- صحيح هتنقل سمرا ؟ هتوديها فين؟

- هوديها مدرسة قريبة من البيت .

- مش فاهمه ! أقرب من مدرستها الحالية ؟ يعني .. و هنا قاطعها حسن :

- و أنتِ كمان اعملي حسابك على العزال في خلال أسبوعين

- هنعزل؟ ليه؟ فين؟ هنسيب شبرا؟

- شبرا بقت زحمة جدًا.. اتغيرت...أنا اخترت مكان هادي .

و قبل أن تجادل من جديد أضاف :

- أنتِ واثقة إني دايمًا بعمل الأحسن لكِ و للولاد، روحي بقى هاتي لي القهوة اللي طلبتها من ساعة .

-اللي تشوفه ... حاضر.

كانت سناء ترى بعينيها أن منطقة شبرا قد تغيرت عن سابق عهدها، حيث اِزدحمت وكثرت بها محلات البقالة و محلات الخضراوات و غيرها، فتبدلت طبيعة الحي الراقي الهادىء ليصبح أقرب للأحياء الشعبية، قبل أن ينتهي الشهر كانت الأسرة قد اِنتقلت لمنزلها الجديد بمنطقة مصر الجديدة، هذه المنطقة الهادئة المنعزلة عن العمار، فكان الشارع لا يتعدى بضع عمارات على الجانبين، و بعضها لم يكتمل بناءها بعد، و من بعدها صحراء بها بعض

الأراضي المحاطة بسور لتحديد ملكيتها لأصحابها، هذه المنطقة النائية كان يطلق عليها " ميدان هليوبوليس "، في مساء اليوم الأول جلس حسن مع زوجته يشربان الشاي في الشرفة

سناء: - بصراحة يا حسن أجمل حاجة في المكان هنا إنك لقيت شقة لسني و سامر في نفس شارعنا .

- المنطقة جديدة و فيها شقق كتير للإيجار، و لسه عندي لكِ مفاجأة تانية ثم وقف حسن و أشار باصبعه للرصيف المقابل و قال:

- شايفة العمارة اللي قدامنا دي ؟ بصي كده على الدور الأرضي

- السلاملك أبو جنينة ؟

- أيوا هو دا.. أيه رأيك الولاد يلعبوا في الجنينة الحلوة دي ؟

ردت سناء باستغراب :

- و السكان هيوافقوا ؟

- طبعًا يوافقوا.. هو في حد يمنع أخوه من الدخول .

نظرت له سناء في دهشة فقال :

- فاكرة لما قولت لك نفسي الأولاد يكبروا مع إخواتهم، الحمد لله ربنا قدرني و جمعت الشمل.. بقينا كلنا في شارع واحد.

- هي مفاجأة فعلًا .

- رقيه أم الأولاد ست طيبة.. إن شاء الله لما تعاشريها عن قرب هتحبيها .

و هنا جاءت سمرا، فتوجه حسن إليها بالحديث لاحساسه أن الخبر أثار حفيظة زوجته:

عارفة يا سمرا زينب و إسماعيل سكنوا مع والدتهم في السلاملك اللي قدامنا دا

نظرت سمرا بدهاء لسناء لترى رد فعلها لأنها تعلم مدى حساسية سناء من هذا الموضوع ثم نظرت للسيد حسن و اِبتسمت و لم تعقب، ثم قالت سناء :

- تعالي يا سمرا ندخل نجيب صينية البسبوسة .

و قبل الوصول للمطبخ لم تستطع سمرا أن تكتم ما يجول بخاطرها فقالت بصوت هامس :

- ليه يعني يسكنوا قدامنا ؟

فردت سناء بضيق :

- سخافة !

دخل السيد حسن إلى المطبخ و قاطع حديثهما الذي استنتج محتواه :

- أجلوا البسبوسة لما نرجع ..أنا بقول نروح نسلم على الجماعة الأول، فلم تعقب سناء و توجت لارتداء ملابسها في ضيق، و بالرغم من محاولات حسن لتهدئة الأجواء و محاولاته اليائسة للمزاح معها إلا أنها ظلت متجهمة .

لم تقابل سناء رقية سوى مرات معدودة و لفترات قصيرة و قد اِقتصرت فقط على حضور رقية للمباركة لسناء على حملها و ولادتها، اِستقبلتهم رقية بإبتسامة رقيقة، و رحبت بسناء و قبلت الأولاد ثم راحت تداعب سمرا و تمزح معها و بعد قليل اِستأذن حسن بالانصراف مُتعللًا بشراء بعض الأغراض اللازمة للمنزل و ترك السيدتين تجلسان سويًّا، لحظة بلحظة ذاب الجليد و

اِنفرجت أسارير سناء فابتسمت، و عندما عاد حسن ليقل الأسرة للمنزل سمع صوت ضحكاتهما فاطمئن قلبه و اِرتاح باله و شعر أن مهمته قد تمت بنجاح .

و في طريق العودة تغير شكل الشارع في عينيّ سناء بالرغم من أنه نفس الطريق الذي سلكته منذ قليل، فصار يبدو أجمل، تعلقت سناء بذراع زوجها في رضا و شعرت بالنسيم العليل يداعب شعرها، فقد اِطمأنت أن رقية و أولادها سوف يكونون إضافة و سندًا للعائلة و ليسوا مصدرًا للمشاكل و الخلافات كما ظنت، و شعرت أن زوجها لها دون غيرها و أن رقية صارت بالنسبة له ابنة خالته و أم أولاده ليس إلا، أما فؤاده فلم يعد يشغله غيرها، وتأكدت بحدس الأنثى أن مستقبله لها و معها أيًّا كان ماضيه.

و بعد أن اِستقرت الأسرة في سكنها الجديد، عاد تجمع العائلة كل يوم خميس، و زاد عليه رقية و أبناؤها، اِلتحقت سمرا بمدرستها الجديدة في منطقة الزيتون و تعرفت إلى زميلتين معها في المدرسة كانتا تسكنان بالقرب منها، فصارت تقابلهم في الصباح وتركب معهم الأوتوبيس وتعود معهم في آخر اليوم الدراسي .

تغيرت ملامح سمرا، فقد كبرت و تبدلت ملامح الطفلة لتصبح شابة يانعة . كانت تتمتع بجمال شرقي و بشرة خمرية، و كان شعرها أسودًا حالكًا و كذلك كانا حاجباها أما قوامها فقد صارت فارهة الطول، نحيلة الخصر، منحوتة القوام تشبه عارضات الأزياء في طلتها .

تخرج سني و أصبح يعمل بمجال الفندقة، و اِستمرت سمرا في نجاحها المعهود في الدراسة، بينما ظل سامر يرسب عامًا و يؤجل امتحانه عامين و يتكل في حياته على إيراد الأرض و مساعدات سني المادية له .

كان حنان و كرم السيد حسن، يزيدان سمرا إصرارًا و تحملًا للمسؤولية، بينما كان تدليل سني أخيه يزيده تراخيًّا و استهتارًا، وعندما وصلت سمرا للمرحلة الثانوية في التعليم لاحظ السيد حسن تدهورًا في حالته الصحية، ظنه في البداية

وهن عادي ناتج عن ضغط العمل و قله الراحة و لكن الأمر لم يكن بهذه البساطة، فعندما ظهرت نتائج التحاليل و الأشعات ظهرت الطامة الكبرى وها هو الخبيث يضرب ضربته مرة أخرى بلا هوادة، نعم كان السرطان اللعين .

.....

الفصل الثالث عشر

اِنهار الجميع لمعرفه الخبر، فقد كان حسن عمود العائلة كلها، كان الأب والأخ و الزوج و السند، و كان راعيًا لخمسة من الصغار في مراحل التعليم المختلفة،

و كعادة هذا المرض يأتي على الأخضر و اليابس، فقد بدأت رحلة العلاج الشاق المكلف، فانطفأت أنوار البيت، و عمّه الظلام و الحزن .

جف منبع الرزق الواسع، و بدا العلاج يستنفذ المدخرات، و بدأت الحياة الرغدة في التقشف شيئًا فشيئًا، و لأول مرة في حياتها عرفت سمرا معنى الاحتياج، ففي هذه السنوات العجاف نسيت سمرا معنى شراء الجديد، فصارت ترمم ما تقطع من ملابسها، و توسع ما ضاق منها، و لا تطلب من مستلزمات

الدراسة إلا الضروري، تذكرت سمرا اليوم الذي وقفت فيه إحدي زميلاتها في الفصل تعيّرها و تسخر منها أمام جميع الطالبات بسبب حذائها الأبيض القديم الذي ظلت ترتديه طوال الوقت قائلة :

- من فقر الفتى، لبس الأبيض بالشتا .

لم تستطع سمرا أن ترد، و لكنها تذكرت كيف انكسرت في هذا اليوم نفسها العزيزة لأول مرة .

دارت سمرا دموعها عن الجميع في المدرسة، حتي عن أختها سناء عندما عادت للمنزل كي لا تزيد همها، و ما أن دخلت غرفتها حتى اِنهارت في البكاء الحار إلى أن غفت عيناها، فرأت كابوسًا مرعبًا (رأت ظلال لأشخاص ، تقترب عليها و تكبلها حتى لا تستطيع الحراك، و رأت أباها واقفًا خلف هذه الظلال

المرعبة لا يستطيع أن يصل إليها لينقذها) فسمعتها سناء من الغرفة المقابلة تئن، و يتعالى أنينها حتى اِنفكت عقدة لسانها و صرخت :

- باباااااا .

هرعت سناء إلى أختها تفيقها و تضمها و تقول:

- بسم الله الرحمن الرحيم..مالك يا سمرا ؟

ردت سمرا بجسد مرتعش و صوت مخنوق:

- كابوس مرعب .. الحمد لله إنه حلم .

ظنت سمرا وقتها أنه حلم و اِنتهى، و لم تعلم أن هذا الكابوس سوف يصير رفيق دربها ما أحياها الله، لعل الناس يعرفون أن من الكلمات ماهو أشد قسوة و أكثر إيلامًا من السيوف، و كعادتها قررت سمرا أن تتصرف بقوة و شجاعة لتحل أزمتها دون أن تطلب مساعدة أحد، فما كان منها إلا أن أقنعت زميلاتها بالمشي معها للمدرسة بدلًا من ركوب الأتوبيس لتوفير ثمن الأجرة، فقالت لهم :

- يعني هنوفر كل يوم قرش صاغ .

فردت صديقتها :

- و هنعمل إيه بالفلوس ؟

- تقدري تشربي عصير أو تأكلي حلويات.

- طب و أنتِ ؟ هتعملي إيه بالفلوس؟

- هحوشهم و بعدين أقولك .

و في شهر كامل من المشي المستمر ذهابًا و إيابًا من هليوبوليس للزيتون، يومًا مع زميلاتها و يومًا وحيدة، اِستطاعت سمرا أن تشتري حذاءًا جديدًا ، حتى لا يُعيّرها أحد بفقرها مرة أخري .

أما عن سني و سامر، فقد ظلا ينفقان من خير الأرض وحدهما و يستأثران به، بالرغم من أن سمرا و أختها كان لهما نصيبًا شرعيًا من الإيراد و بدأت قصص خسائر المحصول و تلفه تتداول كلما حضرا للزيارة و كأنهما يبرران موقفهما المتخاذل و يداريان أنانيتهما و معدنهما الذي اِنكشف .

اِمتدت رحلة العلاج ما يقارب العامين، و لم يكن يعينهم سوى السيد محمد (أخو) حسن الذي كان يحضر كل أول شهر ليعطي أخاه و أسرته جزءًا من دخل العيادة الذي اِنخفض كثيرًا منذ مرض حسن، و لما شعرت سناء بدنو الأجل، ظلت تسأله على استحياء:

- ربنا يطول في عمرك و يشفيك ..أنا مش عارفة هنعيش منين؟

فكان ينظر إليها في قلة حيلة و يقول :

- ربنا موجود .

لم تسمع منه سناء كلمة تطمئن قلبها، و رغم حزنها الشديد لفراقه إلا أن خوفها من المجهول كان أعظم، كانت تخرج من عنده و دموعها تسبقها فتلحقها سمرا بالسؤال :

- ماقالش حاجة؟

فتشير سناء برأسها يمينًا و يسارًا و تبكي فتحتضنها سمرا و تقول لها في ثقة:

-متخافيش .. ربنا مش هينسانا .

و في ظل هذه الظروف العصيبة حصلت سمرا على شهادة الثانوية العامة .

الفصل الرابع عشر

ظلت سمرا تكافح و تحارب الظروف القاهرة التي واجهتها حتى استطاعت أن تحصل علي الشهادة الثانوية، فعادت في هذا اليوم سعيدة منتصرة لتبشر أسرتها، فذهبت لمنزل حسن فأخبرته بنجاحها الذي أسعده و أراح قلبه، و لم تطيق الإنتظار فهرعت لمنزل أخويها بعد ذلك، أخذت سمرا تحدثهما عن المجهود الذي بذلته حتى وصلت للنجاح، و أخبرتهم عن مدى سعادتها لكونها صارت طالبة جامعية مثل أخيها سامر، و على الفور اِنتفض سامر و قاطعها و قال بنبرة غاضبة :

- جامعة ؟ جامعة إيه ؟ أنتِ إتجننتي ؟ معندناش بنات تروح الجامعة ؟ هو إحنا عشان اتساهلنا معاكِ و سيبناكِ لحد دلوقتي في المدارس افتكرتي نفسك هتمشي بدماغك؟ وأنهى جملته و قد قام من جلسته بعدما انتفضت جميع عروق جبهته و رقبته، كم كان ناجحًا هذا الشاب في أن يحول فرحتها إلى صدمة، و

ابتسامتها إلى دموع ، هل كانت الرجولة بالنسبة له هي قهر هذه المسكينة ؟ أم أن نجاحها صار يهدد بفضح فشله المستمر؟

ردت سمرا بصوت منخفض خائف :

- هو أنا مش هكمل ؟ ليه؟ دا كتير من زميلاتي داخلين الجامعة .

- دي بنات سايبة و ملهاش أهل ..عايزة تبقي زيهم ؟

- يعني زميلاتك في الكلية مش كويسين ؟

- أنتِ هتردي عليّ كلمة بكلمة ؟

قالها و هو يُقْبِل بجسده عليها مُهددًا إياها بالضرب إن تجرأت على الرد مرة أخرى، و هنا تدخل سني الذي كان يستمع بدون تعليق مكتفيًا بترك أخيه الأصغر يفترسها، و بنفس نبرة الغضب و التخويف قال :

- روحي يا سمرا و اقصري الشر .. متخليناش نعلمك الأدب و لا أنتِ مفكرة الحبل هيفضل عالغارب على طول؟ همت سمرا بالإنصراف و قد لمعت عيناها بالدموع؛ فعقب سامر: - كمان ماشية من غير ما تعتذر.

عادت الفتاة مكسورة الخاطر و لكنها أبدًا ليست يائسة، فهذه الكلمة لم تكن يومًا في قاموسها، فترك الدراسة لم يكن أبدًا من ضمن خياراتها .

دخلت سمرا على حسن تستنجد به و قالت :

- أبيه حسن ..

- مالك يا سمرا؟

- سني و سامر عايزين يقعدوني في البيت .

- أنتِ عايزه تكملي تعليم يا سمرا ؟

- طبعًا ..أومال تعبي دا كله هرميه في الأرض ؟

- هتقدري على الجامعة ؟ دي مش زي المدرسة .

- هقدر و الله هقدر .

و هنا لم تتمالك أعصابها و بدأت في البكاء، فربت حسن على كتفها و قال :

- خلاص خلاص ..دا إحنا كنا لسه بنبارك لك، حد يحزن يوم نجاحه؟

- كلمهم يا أبيه حسن الله يخليك ..هما بيسمعوا كلامك.. عشان خاطري .

- هكلمهم .. بس عايزك تبيضي وشي قدامهم..مش عايزك تسقطي و لا سنة .

- أوعدك يا أبيه.. بس هما يوافقوا .

و في اليوم التالي استدعاهما حسن، فقال سني :

- أنا مكنتش عامل أبدًا حساب كده .

و رد سامر مؤيّدًا :

- الله يرحمه بابا ..هو اللي دخلها المدرسة .

حاول حسن إقناعهما قائلًا:

-يعني بقول نجرب .. لو فلحت كان بها .. مفلحتش تبقى تقعد .

سني:- و تختلط بالشباب..عاداتنا لا تسمح.. مفيش بنات في عيلتنا بيدخلوا الجامعة .

سامر: - و الله أدبحها أحسن .

حسن:- تاهت و لقيناها .. تدخل مكان مخصص للبنات فقط .

و هنا دخلت سناء تحمل صينية الشاي و قالت :

- الله ينور عليك.. تدخل معهد الإقتصاد المنزلي في الزيتون زي بنت مدام إبتسام جارتنا .

سني:- عمومًا لازم تبقوا عارفين إن الأرض بتخسر و مش هنقدر ندفع لها مصاريف المعهد .

حسن:- وافق أنت بس و ربنا يدبرها.. هي تروح تسأل عن

المصاريف و نشوف بكام في السنة و بعدين نقرر.

تثاقل الحمل على كتفي سمرا هذه الليلة، فظلت تفكر في هم المصاريف، و تشعر بهوانها على أخويها، و هنا عرفت لأول مرة معنى كلمة " يتيمة " .

ذهبت سمرا في صباح اليوم التالي إلى المعهد، و وجدت المصاريف مرتفعة بالنسبة لها، فسألت الموظفة :

- و اللي معندوش المبلغ دا ممكن يطلب تخفيض ؟

- لاء.. اللي معندوش بيطلع شهادة فقر، و يتم إعفاؤه من المصاريف كلها .

قالت سمرا و بدون تردد أمام الجميع و كأنها غريق تعلق بقشة : - لو سمحتي عايزة أعرف طريقة استخراج شهادة الفقر.

عادت سمرا لأخويها تطلب منهم شهادة وفاة أبيها لتقديمها للمعهد، فوجدت سني منشغل بتحضير بعض أوراقه، فرد عليها قائلًا:

- خلي سامر يحضرلك الورق المطلوب لأني مش فاضي .. بحضر ورقي، أصلي مسافر أدرس في سويسرا ..الدراسة برا مصر متقدمة جدًا .

.....

الفصل الخامس عشر

اِستكملت سمرا أوراق الإعفاء من المصاريف بالرغم من إحساسها بالمهانة ، إلا أن الهدف الأسمى لها كان يبعث فيها الأمل و يدفعها للنظر إلى المستقبل .

ذهب سني ليودع حسن قبل سفره لسويسرا و هو يعلم جيّدًا أنه لن يصمد طويلًا أمام مرضه و أن هذا قد يكون الوداع الأخير.

حسن : - هو سامر هيصرف منين و أنت مسافر ؟ متأخذنيش أنا بتطمن عليه.. لأنك بتقول الأرض بتخسر.

- أنا مرتب نفسي أبعت له مبلغ شهري ..أنا والدي وصاني عليه .

- طب و سمرا ؟

- هي مش قالت هتتعلم و مش هتكلفنا مصاريف ؟ و لا رجعت في كلامها ؟ عمومًا إحنا لسه على البر .

- لا يا سيدي مفيش تغيير و لا حاجة ..أنا بسأل عن مصروف إيديها و مواصلاتها .

- و هي هتحتاج مصروف ليه ؟ ما هي بتاكل و تشرب هنا في البيت.. و إذا كان على المواصلات هوصي سامر يديها جزء من المصروف اللي هبعته له .

- طيب متنساش تبلغه قبل ما تسافر.. أنت عارف دي يتيمة و ملهاش غيركم .

أبى حسن أن يتوسل إليه أكثر من ذلك، فقد كانت نفسه عزيزة و لولا الظروف لظل يغدق عليها ما أحياه الله .

و بعد أشهر معدودة إمتلاء المنزل بالإخوة والأقارب الذين حضروا لتقديم واجب العزاء في رحيل الرجل الذي عز وجوده في هذا الزمان، الرجل الذي ترك ذكراه العطرة و حسن خلقه متعلقة بالأذهان، كان رحيله بمثابة خنجر في صدور كل من عرفوه، رحل الرجل و رحل معه الأمان ، تاركًا جميله معلقًا في رقبة سمرا مدى الحياة ، رحم الله حسن ، رحم الله نِعم الرجال.

لم يكن مصاب سناء هيّنًا، فقد صارت أرملة و هي في الثلاثين من عمرها، و كان ولدها الأكبر في العاشرة من عمره و الصغير لم يتخط عامه الثامن بعد، و لم يكن لها مصدر رزق سوى المبلغ الزهيد الذي يحضره محمد (أخو) حسن ، لتقتسمه مع رقية للصرف على الأولاد، بالإضافة إلى مبلغ مادي زهيد صار يرسله سني مُدعيًّا أنه هبة منه، حيث أنه كان يصر على مقوله :- الأرض بتخسر، أما سمرا فبالرغم من الحزن الشديد و قلة الحيلة إلا أنها كانت دائمًا ما تثبت أختها قائلة :

- متخافيش..ربنا معانا .

ظلت سناء تشكر أخواها على إحسانهما و لم تسأل يومًا عن إيراد الأرض، لم تسأل عن سبب التمسك بالأرض و عدم بيعها و تقسيم الميراث، كانت همومها حائلًا دون المطالبة بالحق، و كان ضعفها و انكسارها سلاح في يد أخويها يستخدمانه لإخراسها، و هكذا صارت و أختها أسيرتين للمعروف الذي

ادعاه أخواهما .

اِنتظمت سمرا في المعهد و صارت تتعلم أصول الطهي والتفصيل و أصبحت هوايتها التي تحبها هي نفسها دراستها التي تتقنها.

و في يوم من الأيام حضرت ابنة خالة سناء (فوقية) التي لم ترها منذ زواجها لتعزي سناء في وفاة زوجها، كانت فوقية تسكن بالأسكندرية سابقًا ، إلا أنها و أسرتها كانوا قد اِنتقلوا حديثًا للقاهرة .

سناء: - الحمد لله أدينا بنحاول نمشي المركب من بعده .

فوقية:- ربنا يعينك.. بإذن الله فاروق أخويا هيجي يعزيكي و يعزي سامر. . يوم أجازته من الكلية الحربية هيعدي عليكم .

- منجيلكوش في حاجة وحشة أبدًا .

عادت سمرا من المعهد ذات يوم ، و هي ترتدي الزي الموحد المخصص للطالبات (كان عبارة عن مريلة باللون الرمادي الفاتح، و تحتها قميص أبيض ناصع) و كعادتها عند دخولها من باب الشقة تنظر للمرآة المعلقة إلى جانب الباب، و لكنها وجدت شيئًا جديدًا على المنضدة الموضوعة تحت المِرآة، إنها قبعة ضابط ! و سمعت أصواتًا متداخلة قادمة من الصالون، فاقتربت بخطوات حذرة، فلما رأتها سناء قالت :

- تعالي يا سمرا .. مفيش حد غريب .. دا فاروق ابن خالتك .

دخلت سمرا الصالون و سلمت على الضيف، كان فاروق شابًا وسيمًا في السنة الأخيرة في الكلية الحربية، ورث الملامح الشقراء عن والدته، فكانت تزين بشرته البرونزية حُمرة، و كانتا عيناه خضراوتان و شعره كستنائي فاتح، كان يرتدي بدلة الكلية ألحربية التي تزيده هيبة و أناقة .

أصر سامر أن يظل فاروق معهم حتى موعد الغداء، و بعد ذلك تجمعت عائلة حسن، فظل معهم فاروق يستمتع بأنسهم و يتجاذب معهم أطراف الحديث، و عندما حان وقت الانصراف وعدهم فاروق بتكرار الزيارة كلما سمحت ظروفه.

و مرت عدة أسابيع حتي عادت سمرا من المعهد ذات يوم، فنظرت للمنضدة الموضوعة تحت المِرآة عند مدخل الشقه ، فوجدت قبعة ضابط .

الفصل السادس عشر

دخلت سمرا بزي المعهد، فسلمت على ابن خالتها ثم قامت مع سناء لإعداد الغداء، عَلِم فاروق لأول مرة أن أصناف الطعام الشهية كلها من إعداد سمرا، فاستغل الفرصة ليوجه الحديث إليها و يخرجها عن صمتها و خجلها، و كان يمعن النظر إلى ملامحها و كأنه يرسمها بمخيلته حتى تبقى صورتها بعينيه حين يغادر، فلم يكن يُبالي بإجابات الأسئلة التي يطرحها، و لم يكن الحوار بالنسبة له إلا فرصة مشروعة ليتحدث معها و يطيل النظر إليها على مرآى من أخيها الأكبر دون إثارة.

الشكوك و التحفظات، و كلما زادته عيناها جاذبية، و كلما أطربه صوتها الناعم و أضحكته خفة ظلها، كلما أمطرها بوابل من الأسئلة العجيبة التي لا تعنيه بالمرة، أما هي فقد كانت تجيب ببراءة، فمازال قلبها الأخضر ينظر له نظرة أخ أكبر، فلم تظن و لو للحظة أنه يراها أنثى جذابة و بالرغم من وسامته الملفتة إلا أن هذا أيضًا لم يحرك عواطفها التي لم تزل زهرة لم تتفتح بعد .

لم يستأذن فاروق بعد الغداء و لكنه ظل معهم ليحضر التجمع العائلي و يستمع معهم لحفلة السيدة أم كلثوم التي كانت تذاع أول كل شهر بالراديو، تكررت زيارات فاروق حتي أصبحت عادة أسبوعية، و ظلت سمرا تأسره مرة بعد مرة دون أن تشعر حتي صار سجينًا في قلاعها، لا يريد التحرر من قيده بل يعشقه و مع توالي الزيارات و فهمه العميق لشخصيتها، عرف أنها لا زالت لا تعي حقيقة مشاعره تجاهها، كان يفهم من عفويتها أنها لم تبادله تلك الأحاسيس بعد ، فظل حبها يمزقه حزنًا حتى قرر أن يكون أول من يعزف على أوتار قلبها، فهو يعرف أن البركان الثائر في صدره لن يهدأ إلا إذا اِشتعلت نيرانه بمهجتها.

لم تكن الفرص مهيأة لتنفيد مخططه، فالبيت دائمًا مزدحم بسناء و أولادها، و سامر الذي صار يعتبره صديقه المقرب، فكان يلتصق به منذ بداية الزيارة حتى نهايتها، مما زاد مهمته صعوبة، فتوجب عليه أن يلفت نظرها و يستميلها دون لفت أنظار الآخرين و بدأ مهمته المستحيلة .

كان يعلم جيّدًا أن هذه الفتاة البريئة التي لم تعرف الحب يومًا ستذوب كقطعة الزبد الصغيرة في اليد الدافئة، و صارت محاولاته المستميتة في اصطياد قلبها تزيده هو سقوطًا في الشرك، و صار تفانيه في التقرب منها يزيده حبًا و هيامًا .

و في يوم من الأيام عندما نزل سامر لشراء علبة سجائر، و بينما كانت سناء بالمطبخ تعد الغداء، نظر فاروق فوجد سمرا تحاول إحضار مفرش السفرة من فوق الأرفف الخشبية الموجودة بغرفة الطعام، فاِقترب منها قائلًا :

ـ أساعدك ؟

ـ لا شكرًا .

ثم اِبتسمت قائلة : ـ أنا طويلة .

و كلما لامست أصابعها المفرش لم تستطع إحكام قبضتها عليه، فاِبتسم و قال :

ـ ما أنا قولت لك أساعدك !

فأقبل عليها و اِقترب منها و نظر في عينيها، ثم مد يده إلى جانب يدها فوق الأرفف و أمسك بالمفرش و أنزله و اِبتسم ابتسامة رقيقة و عيناه لا تزالان حائرتان في عينيها، فأمسكت الفتاة بالمفرش و اِبتعدت عنه في توتر عدة خطوات للخلف حتى كادت أن تتعثر و تسقط، فمد يده بسرعة و أمسك يدها حتى اِستعادت توازنها، فاستدارت وتوجهت مسرعة نحو المطبخ ناسية المفرش و السفرة و كل شيء وبينما وقفت إلى جانب سناء في صمت كادت تسمع دقات قلبها المتسارعة .

أما هو فقد دخل عليه سامر ليجده يفرش المفرش على المنضدة، تعلو وجهه ابتسامة و عيناه هائمتان، فقال سامر مقاطعًا :

ـاتاخرت عليك ؟

فأيقظه من اللحظة التي ود لو ظلت للأبد .

.....

الفصل السابع عشر

مرت ألايام و بدأ ولدا سناء يكبران ، و في كل يوم يزيد تعلقهما بسمرا التي كانت الأم الصغرى بالنسبة لهما ، و مع تقدمها في دراستها و إتقانها فن التفصيل ، صارت تشكل مع سناء فريق عمل لتصنيع أجمل الأزياء للولدين و لنفسهما أيضًا، بدأت سمرا تنضج فتعلمت كيف تستخدم مرود الكحل لتزيين عينيها، و كيف تستخدم الطرق البسيطة لفرد تموجات شعرها و هندمته، و تعلمت كيف تنتقي عطور رقيقة بأسعار في متناول يدها، صار فاروق جزءًا لا يتجزأ من روتين يوم الخميس، و صارت قبعته الموجودة على المنضدة الموضوعة تحت المرآة عند باب الشقة هي سمة مميزة لليوم، رأى فاروق سمرا تكبر أمام عينيه، و شعر بتحول مشاعرها الساذجة إلى مشاعر دافئة ، صارت تسأله عن سبب غيابه إن غاب و لم يحضر، أو حتى تأخر عن موعده المعتاد ، صارت تستمتع هي الأخرى بإطالة الحديث معه و سؤاله عما يهمها وما لا يهمها، و في يوم من الأيام عادت سمرا من المعهد ، فدخلت من الباب و نظرت في المِرآه لتجد انعكاس صورته و قد أقبل ليستقبلها عند باب الشقة ،

فمدت يدها لتسلم عليه؛ فسلم عليها ثم رفع يدها على شفتيه و أغمض عينيه و قبل أصابعها قبلة دافئة، و هنا تلعثمت الفتاة و قالت :

ـ ليه عملت كده ؟

فرد فاروق:

ـ عشان بحبك .

و هنا اِرتبكت الفتاة بالرغم من أنها كانت تعرف الإجابة مسبقًا، إلا أنها لم تستطع أن تطيل النظر إلى عينيه المبتسمتين برقة و بريق ، فحولت نظرها عنه و اِنصرفت دون أن تنطق بكلمة، فتوجهت إلى غرفتها و حاولت أن تتمالك أعصابها خشية أن يراها أحد و يلحظ توترها، و حينما خرجت من غرفتها كان سامر قد عاد و في يده كيس كبير من الفاكهة، فساعدت سناء في إعداد السفرة ، و على الغداء كان فاروق يتحدث إليها و كأن شيئًا لم يكن ، أما هي فظلت متلعثمة، مرتبكة ، ترد بعبارات مختصرة و تشعر أن الجميع يراقبوها و أن ما في قلبها قد ينكشف، في آخر الزيارة أخبرهم فاروق أنه لن يستطيع الحضور الخميس التالي ، فانتبهت سمرا و نظرت إليه هذه المرة غير مبالية بوجود الآخرين و كادت عيناها تستفسر عن السبب ، و لكنه لم ينظر إليها و اكتفى بأن يخبر سامر بأن لديه مهمة خاصة بالدراسة .

بعد رحيل فاروق استعدت سناء و الأولاد للخروج ، حيث كان الاجتماع الأسبوعي في منزل رقية هذا الأسبوع، حاولت سمرا الاعتذار عن الذهاب معهم متعللة بحجج واهية ، إلا أن سناء أصرت على اصطحابها.

لا تعرف سمرا كيف سارت في الطريق إلى منزل رقية ، أو كيف وصلت ، لا تذكر كيف مرت الأمسية و لا من كان هناك ، فلم تكن تعي شيئًا مما كان يدور

حولها و كانت تسبح في عالمها الخاص ، تذكر لمسة يده و عطر أنفاسه و قبلته على أصابعها ، تذكر صوته الحنون و تسمع كلمة "أحبك".

لم يعكر صفوها هذا الأسبوع إلا إحساسها أنها لن تراه يوم الخميس ، و في نهاية الأسبوع ، خرجت من المعهد مع زميلاتها و هي شاردة الذهن، و سارت معهن لموقف الأتوبيس إلا أنها اِعتذرت فجأة عن الركوب معهن و قالت :

- يا خبر يا بنات.. أنا نسيت أشتري بكرة الخيط و الإبر اللي موصياني عليهم سناء !

فردت إحداهن :

- مش مشكلة .. اشتريهم يوم السبت .

- لاء مش هينفع ..سناء تزعل ..أصلها لازم تستخدمهم النهارده .

- طب أنا ممكن أرجع معاكي و أمري لله .

- مفيش داعي . اركبي معاهم عشان متتأخريش ..أنا هجيبها بسرعة و أروح أشوفكم يوم السبت .. سلام يا بنات، و تركتهم بسرعة قبل أن يصروا على مرافقتها ، تركتهم لأنها نظرت للرصيف المقابل؛ فوجدت ضابط وسيم يقف بجوار شجرة و يقف في ظلها ، إنه فاروق .. ينتظرها .

.....

الفصل الثامن عشر

عبرت سمرا الطريق إلى الجهة المقابلة، و سارت بضع خطوات في خجل دون أن تنظر إليه، بينما كاد قلبها أن يقفز من صدرها من شدة الفرح لرؤيته، لحقها فاروق و سار خلفها حتى اِبتعدا عن المعهد ثم أسرع في خطواته حتى لحق بها و صار يمشي بجانبها ، فنظر إليها و نظرت إليه و اِبتسما في صمت ، بينما كانت قلوبهما تتحدثان بصوت مسموع.

لم يمد فاروق يده ليمسك يدها فقد كان يخاف عليها من أعين الناس، و لكنه كان يشعر أنه يحتضنها في كل خطوه يخطوها بجانبها، أما هي فأحست كأنها تطير فلا تلامس قدماها الأرض، اِمتزج بداخلها الفرح و الخجل، فلم تعد تعلم ما تبدي و ما تداري، و لكنه شعور قوي يجتاح كيانها، فينعقد لسانها عن الكلام.

سارا حتى مرا بمحل صغير للحلويات الشرقية، فقال فاروق:

-تيجي ناكل حاجة حلوة هنا ؟

فأومأت برأسها بالموافقة، لم تطل جلستهما فهو لم يكن يريد أن يأخرها عن موعد عودتها للمنزل ، و بالرغم من أن الحديث كان عاديًا عن أخبارهما طوال الاسبوع ، إلا أنها كانت تسمع كلمة " أحبك" في كل نظراته، و عند الرحيل سلم عليها بيده، فأغمضت عينيها لثوانٍ معدودة، فقال مُداعبًا إياها:

- ليه عملتي كده ؟

فخجلت و سحبت يدها و نظرت في الأرض و قالت :

- إنت ليه استنتني عند المعهد ؟

- كنت عايز أتاكد من حاجة .. و اتأكدت .

فابتسمت و تركته ، فنادى عليها :

- سمرا

فنظرت خلفها فقال :

- أنا مستني سني يرجع من السفر .

فاستدارت مرة أخرى و الابتسامة تنير وجهها و قلبها و طريقها حتى طارت إلى منزلها محمولة بجناحين من فضة، لم تكن سمرا لتتجرأ و تسأله عما ينوي تجاهها ، إلا أنه كان يعشقها عشق النبلاء، فلم يتركها لظنونها و حيرتها ، أرادها دائمًا سعيدة مستبشرة، و أراد أن يثبت لها أنه أهل لثقتها، كان هذا الشاب حقًا يحبها، عندما عادت سمرا إلى المنزل سألت سناء عن موعد عودة سني، فأخبرتها أنه سيرجع بعد شهرين تقريبًا .

فرحت سمرا و تمنت له السلامة، و لو كانت تعلم ما يخبئه لها أخوها ، لتمنت ألا يعود أبدًا .

.....

الفصل التاسع عشر

لم يكن الحب يومًا عائقًا أمام تقدم سمرا في الدراسة ، بل كان دافعًا للاستمرار في النجاح و التفوق، أما سامر فاِستمر في رسوبه و لم يحصل يومًا على شهادة الحقوق ، و لم يبحث يومًا عن عمل، كان يكتفي بالإيراد الذي يحصله من الأرض الزراعية إلى جانب الإعانة الشهرية التي يأخدها من أخيه الأكبر الذي كان أيضًا يشتري له الملابس و الأحذية و العطور مثلما يشتريها لنفسه .

كان سني محدد الأهداف ، مقررًا أن يصنع مستقبلًا مشرقًا لنفسه بالعلم و العمل و التقرب إلى المديرين و التعرف على طبقات المجتمع الراقي و المسؤولين ، و كان سفره إلى سويسرا نقطة انطلاق بالنسبة له ، فنجح في اختبارات عامه الأول بتفوق و عاد في الأجازة إلي مصر.

فرحت سمرا لعودة سني ، ليس فقط لأنها تنتظر مقابلة فاروق له، و لكن أيضًا لأنها كانت لا تزال تراه قدوة لها في تفوقه و علمه، و بالرغم من قسوته عليها إلا أنه كان يمثل لها رمز الأب بعد رحيل السيد حسن و من قبله والدها.

حضر سني بملابسه الأنيقة، و طول قامته، يمشي مختالًا كالطاووس، و أخذ يحدث سناء و سمرا عن إنجازاته و تفوقه المنقطع النظير، و يمن عليهما بالمرتب الشهري الذي يساعدهما به، و الفتاتان منبهرتان به شاكرتان فضله و إحسانه في كل كلمة، و في يوم الخميس المرتقب حضر فاروق و قد طلب مقابلة سني عازمًا على أن يطلب يد فتاته لتكون رفيقة دربه.

ظلت سمرا ترتجف طوال اليوم من فرط السعادة ، و تحلم باللحظة التي يُقبلها فيها سني علي جبينها بحنانٍ قائلًا:

- مبروك يا سمرا .. فاروق خطبك .

نعم حلمت بتعالي الزغاريد بالبيت، و بثوب الخطوبة، و بالشاب الذي أسر قلبها لتبدأ معه قصتهما و تبني بيتهما الصغير، عندما عادت سمرا من المعهد في هذا اليوم ، وجدت قبعة فاروق في مكانها المعتاد ، ووجدته في جلسة مغلقة مع أخويها ، فدخلت مسرعة إلي غرفتها لترتدي أجمل ما لديها اِستعدادًا للحظة المنتظرة، بعد حوالي ساعة ، سمعت سمرا صوت باب غرفة الصالون ينفتح ، فاِنتظرت أن يناديها أخوها كما كانت تحلم ، و لكنها اِنتظرت و اِنتظرت و اِنتظرت ثم فتحت سمرا باب غرفتها بحذر، فرأت سني و سامر يجلسان في الصالون يتهامسان ، و نظرت في كل أرجاء الغرفة فلم تجد فاروق، ثم نظرت أمام الباب فإذا بقبعته قد اِختفت.

ذهبت سمرا مسرعة إلى الشرفة علها تراه، فلم تجده ، لم تفهم سمرا ما حدث ، هل أجلوا الموضوع ؟ هل رفضوه ؟ لم تكن تدري !

ظلت سمرا صامتة ما بين اليأس و الرجاء ، تنتظر أي كلمة من أخويها أو حتى أختها سناء دون جدوى، كانت تبتسم في وجوه الجميع و تؤدي مهامها اليومية كأن شيئًا لم يكن ، و كان أصعب ما في ألمها هو كتمانه، حيث أصبح البوح بالحزن رفاهية بالنسبة لها ، فكان قلبها المحتضر يتوارى عن أعينهم خلف ابتسامة مصتنعة، و كأنه أجرم حين أحب ، و كأن حقها في الزواج عار يجب عليها أن تخفيه .

كانت سمرا تخاف بطش أخويها ، و تخشى أن يعرفا أنها تبادل فاروق مشاعره ، أو يعلموا شيئا عن نواياه تجاهها ، فقد كانت تعلم مدى قسوتهما عليها.

أما سني و سامر فقد تجاهلا الموضوع في دهاء و مكر منقطع النظير، منتظرين أن تبدو عليها أيّة تساؤلات فيدمرونها و كأنها نكرة ، و أول ما كانا ينويان فعله هو منعها من الدراسة، فتصير مثل الحيوان الأليف الذي ليس له مطالب سوى الطعام و الشراب، أشعراها في كل لحظة أن السماح أصلًا لها بالحياة و التعلم كانا أكثر مما تستحق .

ظلت المسكينة تنتظره كل خميس أمام المعهد، و عندما لا تجده تسرع إلى البيت و تنظر لعلها تجد قبعته في مكانها المعتاد، و عندما لا تجدها تدخل إلى غرفتها منكسرة لتداري دمعة سبقت رمشها، كم ودت لو كانت تعلم عندما رأته آخر مرة أنها لن تراه ثانية ، لعلها باحت له بحبها أو طلبت منه أن يحارب من أجلها.

عاشت سمرا أيامها على أمل عودته، و لولا هذا الأمل لما تحملت ألم فراقه، و مع الوقت يئست سمرا من عودته، و أفاقت من أملها على الحقيقة المُرة، و صدقت أنه رحل بغير عودة، فانطفأ بداخلها نور هذا الحلم الجميل ، و عاد الكابوس الشرس يهاجمها كل ليلة حتى صارت تخاف أن تنام .

.....

الفصل العشرون

مرت الأيام على سمرا باردة ثقيلة، حتى أختها سناء صارت تشعر تجاهها بالفتور لأنها لم تكن تفهم لماذا لا تخبرها سناء عما حدث في ذلك اليوم، لم تكن تعرف حتى إن كان أخواها قد أخبرا سناء أم أنها لا تعرف شيئًا .

لم يكن يؤنس سمرا سوى وجود ولديّ سناء إلي جانبها، فصار حبها لهما و رعايتهما شغلها الشاغل إلى جانب الدراسة، لم يتغير شيء في الحياة سوى أن قلبها الجريح ظل ينزف سرًا دون أن يشعر أحد، في السنوات التالية أكمل سني دراسته في سويسرا و حصل على شهادة معتمدة في مجال إدارة الفنادق الدولية، ثم عاد ليستعيد منصبه، و ظل يترقى في وظيفته و يتنقل بين الفنادق حتى اِستقر في واحد من أكبر الفنادق في مصر و العالم .

أثناء عمل سني بالفندق تعرف إلى رجل أعمال ميسور الحال، و ما أن رأى ابنته حتى اِفتتن بجمالها الأخاذ و رقيها الملحوظ، فلم يتردد في التقدم لخطبتها و في فترة وجيزة تم الانتهاء من منزل فخم للزوجية على ضفاف النيل، و تم

الاتفاق مع خادمة وسائق للسيارة ليكونا طوع أمر العروس التي ملكته بأنوثتها كان سني يشعر أنه بزواجه منها قد أكمل الواجهة الاجتماعية المناسبة لتطلعاته اللا محدودة .

أما سامر فظل على حاله، لم يحرك ساكنًا، يعيش حياة بلا هدف، لم يفكر بالعمل أو حتى الزواج، و ظل يعيش لينفق كل ما يتحصل عليه من أموال، عاش ليأكل و يشرب و ينام و يتنفس، وفي أثناء كل ذلك وصلت سمرا للعام الأخير في المعهد ، و كعادتها كل عام قدمت طلب إعفاء من المصاريف الدراسية مصحوبًا بشهادة الفقر .

و لم يكن النجاح و التفوق و مرور الأعوام ينسونها الألم الذي تشعر به كلما أمسكت بيديها شهادة الفقر، ظلت سمرا تخطط منذ بداية العام الدراسي لعمل مشروع التخرج، فأرادت كعادتها أن تبهر الجميع بأدائها المتميز، فكانت طوال العام تدخر كل ما تحصل عليه من نقود و تؤثر السيرعلى الأقدام عن ركوب المواصلات حتى استطاعت في فترة ليست بالوجيزة أن توفر مبلغًا لا بأس به ، فتوجهت إلى منطقة ميدان الجامع التي اِشتهرت بمحال بيع الأقمشة الراقية و دخلت جميع المحال لتختار أجمل قطعة من القماش، كانت القطعة من قماش الجبير الأسود المطرز بخيوط فضية مبهرة، قطعة فنية في صورة نسيج، فاِشترته على الفور بكل ما تملك من نقود .

اِنبهرت سناء لجمال القماش و جلست مع سمرا تخططان لعمل ثوب أنيق ليكون مشروع تخرج سمرا، و في اليوم التالي سلمت سمرا القماش لمشرفة التفصيل بالمعهد، و ظلت تتوجه يوميًا لغرفة التفصيل لتنجز عملها .

يوما بعد يوم اِكتمل الثوب، فدخلت سمرا لترتديه و تأخذ رأي المشرفة، و ما أن أقبلت بالثوب حتى اِلتفت حولها الطالبات يثنين على جماله الذي زادته طلتها و قوامها اِبهارًا، فكانت تبدو كنجمات السينما، كان الثوب يحتضن قوامها الممشوق حتى يقارب ركبتيها، فيتسع بعد ذلك فكانت تبدو فيه كعروس البحر.

عادت سمرا لتبشر سناء بانتهاء المشروع على أكمل وجه قائلة :

- خلصت الفستان و طلع زي ما كنا بنحلم تمام .

- ألف مبروك.. طول عمرك شاطرة يا سمرا.. تعالي بقى ساعديني عشان الجماعة كلهم جايين النهارده.. دي ليلة الست .. كل شهر و أنتِ طيبة، كانت ليلة حفل السيدة أم كلثوم تثير بقلب سمرا الأشجان و تذكرها بأجمل ما كان في حياتها و اِنتهى، و أثناء التجمع العائلي توجهت سمرا للمطبخ لتحضر زجاجة المياه حين سمعت سناء تتحدث إلى إحدى قريباتها :

- لا و الله مفيش أخبار عنهم .

الضيفة: - إزاي بقى ؟ دول مهما كان ولاد خالتكم .

- من يوم سني ما رفض خطوبة فاروق لسمرا و هما و خالتي زعلانين مننا النصيب بقى هنعمل أيه ؟

- و هو حد يرفض فاروق ؟ بصراحة الشاب ممتاز.. أدب و علم .

- أصل سني بيقول لسة في بداية حياته.. موقفش على رجليه ..و سامر أخدته الكرامة .. إزاي يدخل البيت و يبص لأخته .. والبنت كانت لسة صغيرة .

- متزعليش مني دي أسباب واهية، واضح إنهم مش عايزين يجوزوها عشان ميتحملوش مصاريفها .

- لا أبدًا دا سني زي ما أنتِ عارفة ..ميهموش الفلوس .

- سني قرشه لنفسه و لأخوه ..دا اللي يشوف شقته ميقولش أبدًا إن دا حالكم .

- ماله حالنا !! الحمد لله .

- و ألكلام اللي قاله للشاب خلاه ماشي يكلم نفسه .. إزاي يكدب عليه و يقوله إن سمرا أخته في الرضاعة ؟

- دي حقيقة مش كدبة !

- أخته إزاي يا عالم و هو أكبر منها بخمس سنين ؟

- أنا راضعة على أخوه فؤاد .. و سني بيقول حرام .. هو إحنا هنفهم أحسن منه؟

- هو سني بقى مفتي الديار و أنا معرفش؟

- عمومًا كل شيء راح لحاله و معدش الكلام منه فايدة .

علمت سمرا أخيرًا ما في الأمر، فأعادت الذكريات مواجعها و كأنها تتلقى الطعنة للمرة الأولى، و كأن اليوم المشؤوم يعيد نفسه مرة أخرى، و كانت صدمتها أكبر عندما علمت أن سناء كانت تعلم بأنهما كسرا قلبها و صمتت و لم تنصرها خوفًا من بطشهما، فبالرغم من كل ما فعلته سناء من أجلها إلا أن سمرا شعرت أنها لن تستطيع أن تسامحها .

و في هذه الليلة بالتحديد جاء سني ليحضر التجمع العائلي على غير عادته، و اِنفرد بالحديث لسناء و كأنه يخبرها سرًا، حضر خِصيصًا ليبوح به.

- معلش الصبر .. ربنا هيفرجها

- كل شهر على الحال دا .. بكاء و حزن .. نفسها تفرحني بطفل

- مش لازم تحسسها إنك قلقان .

- أنا بحبها و مبقدرش أزعلها و لا برفض لها أي طلب ..و أديكي شايفة أنا معيشها إزاي .

و بعد انتهاء الليلة و أثناء ترتيب المنزل سألت سمرا :

- هو سني ماله ؟ شكله كان عايزك في حاجة مهمة .

- قال ناهد محملتش لحد دلوقتي و حزينة و عمالة تعيط .. و الغريبة أنه بيتكلم عنها و كأنها بسكوتة، خايف تتكسر و عمال يطبطب عليها، عيني علينا و عاللي شوفناه من الدنيا و من إخواتك .

- إزاي بيعاملنا كده و بيعاملها كده ؟

- هو في رجاله كده ..يبقى زي ما أنتِ شايفه مع الحريم .. و كأنه واحد تاني غير اللي نعرفه .

- طب و إحنا ليه بيعاملنا كده ؟

- إحنا ؟ إحنا لينا ربنا ..أحسن من الكل .

.....

الفصل الواحد و العشرون

نجحت سمرا و تخرجت أخيرًا من المعهد، كانت فرحتها غامرة و صارت تشعر بالتحرر و المقدرة على الاعتماد على النفس، و في صباح يوم من الأيام وصل خطاب التعيين لسمرا، فقد تم تعيينها كمدرسة للإقتصاد المنزلي بمدرسة في مدينة العريش.. هذه المدينة الحدودية التي لم ينلها حظًا كافيًا من العمران أو التمدين، و لما علمت سناء بالخبر قالت :

- و هما يا بنتي إخواتك هيوافقوا إنك تسافري لوحدك و تتغربي؟

- متخوفنيش بقى .. هو أنا يعني اِتعينت هناك بمزاجي؟ و الله لو سني مش موافق يكلم لي حد من معارفه ينقلني القاهرة أو يشغلني معاه في الفندق .

- طب تعالي نتصل بيه و نقطع الشك باليقين .

- اِتصلي أنتِ .

- أمري لله .

و بالفعل اِتصلت سناء بأخيها و هي قلقة، و كانت ترتب لاستعطافه ومحاولة إقناعه، إلا أنها صدمت من رد فعله.

سني: -طب كويس ..أهي كلها مصر .

ردت سناء في تعجبٍ :

-يعني أنت موافق ؟ يعني تجهز نفسها للسفر و تتوكل على الله؟

- أنا مشغول دلوقتي .. مع السلامة

نظرت سناء بدهشة لسمرا و قالت :

- معترضش .

- طب و سامر ؟

- سامر ميقدرش يكسر كلام سني .. طالما سني وافق خلاص .

بدأت الصورة تتضح في ذهن الفتاة، لم تكن ثورة أخويها في السابق و محاولة منعها من التعليم لخوفهما عليها كما كانا يدعيان، و لا للمحافظة على العادات و التقاليد، كان كل ما سبق من عنترية كاذبة ما هو إلا محاولات للتملص من مصاريفها و مسؤوليتها، ورغم كل القهر الذي تعرضت له سمرا في حياتها، إلا أنها كانت محددة هدفها و طريقها، و كانت تسعى للتخلص من قيودهما حتى قبل أن تكتشف زيفهما، تجهزت سمرا لتشد الرحال لمدينة العريش و تستلم عملها، اِستعدت لتترك هذا المنزل الذي اِحتضنها من بعد رحيل والديها لأول مرة في حياتها .

.....

الفصل الثاني و العشرون

وصلت سمرا بعد رحلة شاقة إلى العريش، هذه المدينة الصحراوية التي يغلب على أهلها الطابع البدوي، توجهت فور وصولها إلى المدرسة التي تعينت بها لتسلم أوراقها، ثم ذهبت بعدها إلى سكن المعلمات لاستلام غرفتها.

لم تكن سمرا وحدها في الغرفة و لكن كان معها زميلتان من حديثي التخرج مثلها ، كانتا هيام و إصلاح، هيام كانت مدرسة علوم من القاهرة، و إصلاح كانت مدرسة لغة عربية ودين من أصل صعيدي .

هيام : - أهلًا وسهلًا .. أنا هيام و دي إصلاح .

- أهلا بيكم ..أنا سمرا .

- بصي بقى من غير كسوف إحنا هنا إخوات.. و بإذن الله هتكون بيننا عشرة طيبة.. و لو اِحتاجتي أي حاجة قوليلنا.. و لو أي حاجة ضايقتك تقوليها.. لأننا هنكوّن أسرة واحدة لمدة عام دراسي كامل.. و لا إيه رأيك ؟

- متشكرة جدًا..اِستقبالكم فعلًا ريحني و طمني ..و إن شاء الله تكون سنة سعيدة علينا .

في المساء جلست الفتيات يتجاذبن أطراف الحديث ويروين حكاياتهن و يتحدثن عن نشأتهن و دراستهن و طموحهن الذي ليس له حدود، وفي صباح اليوم التالي توجهت الفتيات إلى المدرسة للتعرف على موجهات المواد والتعرف على طبيعة العمل و طريقة تحضير الدروس و متابعة المناهج الدراسية .

تعرفت سمرا على السيدة سعاد، موجهة الإقتصاد المنزلي، المادة التي كان لها أهميه قصوى في هذه المدرسة نظرًا لأن الفتيات يتزوجن مبكرًا في هذه المدينة، فكان عليهن إتقان أصول الطهي و التفصيل.

سمرا : - إن شاء الله أكون عند حسن ظنك يا أبلة سعاد .

سعاد :- أنتِ شاطرة يا سمرا .. بصراحة عمري ما مرت عليا مُدَرسة جديدة و عندها كل المعلومات اللي عندك .

- متشكره يا أبلة .

- عايزة أشوفك شخصية قوية، وواثقة من نفسك في الفصل قدام البنات..متنسيش إن سنك صغير و لازم تقدري تسيطري عليهم .

- حاضر.. إن شاء الله هتكوني راضية عني يا أبلة .

كانت سمرا سعيدة في عالمها الجديد، فقد كانت كالعصفور الذي اِنطلق أخيرًا خارج قضبان القفص، صارت سمرا تقضي أسعد الأوقات مع هيام و إصلاح، يشترين الطعام من السوق و يطهينه سويًّا، حتى الأصناف الغير معتادة صِرن يشترينها .

إصلاح: - تقدري تقولي لي هنطبخ الكابوريا دي إزاي ؟

هيام صارخة : - اِلحقي يا سمرا..الكابوريا خرجت من الكيس

إصلاح : - بسرعة ناولوني السكينه أدبحها .

اِنتابت سمرا و هيام نوبة من الضحك فسألت إصلاح:

- بتضحكوا ليه ؟

فرد سمرا و هي تضحك :

- الكابوريا سمك و مش بيتدبح .

فقالت إصلاح و قد بدأت تضحك معهم :

- و أنا أعرف منين ؟ معندناش كابوريا في الصعيد .

كانت سمرا تعلمهما كيفية العناية بالشعر و البشرة باستخدام مواد طبيعية مثل اللبن و البيض، و كيفية فرد الشعر بالمكواة المعدنية بعد تسخينها على النار، و غير ذلك من أمور الفتيات، شعرت معهما أنها وسط أسرتها، كانت الغربة تقربهن لبعضهن، و ساعات السمر و مغامرات المطبخ و رحلات السوق تزيد من حبهن لبعضهن، و أصبحت صُحبتهن ترسم أجمل ذكريات العمر.

تميزت سمرا في عملها و ذاع صيتها على مستوى المدرسة، و مع أول راتب اِستقطعت سمرا جزءًا بسيطًا لمأكلها و مصاريفها الشخصية و أرسلت الجزء

الأكبر بالبريد لسناء، و شعرت أخيرًا أنها بدأت في سداد جزء ضئيل من الدين المعلق في رقبتها لسناء و لزوجها الراحل .

كان مرتبها لا يتعدى سبعة عشر جنيهًا، و لكنه كان يمثل لها التحرر من قيد الفقر و الاحتياج و انتظار المعونة من الآخرين، كانت مدينة العريش مكانًا آمِنًا ، فلم تتعرض الفتيات لأي مضايقات طوال العام، و كن يتجولن في السوق و يشعرن بالراحة النفسية وسط السكان الذين يغلب عليهم طابع الشهامة و المروءة البدوية، مر العام الدراسي الأول بسلامٍ، و في حفل نهاية العام، قامت سمرا بمساعدة الطالبات بإعداد معرض صنعت فيه أفخر أنواع الحلوى الغربية و الشرقية، و أنواع من الأطعمة المحفوظة مثل المخللات، و اللحوم المحفوظة مثل البسطرمة ولأول مرة في تاريخ المدرسة بيعت جميع المعروضات بالكامل و أدرت على المدرسة الربح الوفير

سمرا :- الحمد لله يا أبلة سعاد..كل المنتجات اتباعت.

سعاد : - دي أول مرة تحصل.. حتى المدرسات اِشتروا من التورتة اللي عملتيها .

- كله بفضل نصايحك يا أبلة .

- أنا فخورة بيكِ يا سمرا.. الناظرة بنفسها كتبت التقييم السنوي بتاعك و بعتته الإدارة التعليمية، إن شاء الله تقضي أجازة سعيدة و ترجعي لنا بالسلامة .

ودعت سناء أستاذتها، و زميلاتها و عادت إلى القاهرة مشتاقة لرؤية أهلها لتجد مفاجأة في اِنتظارها.

.....

الفصل الثالث و العشرون

عادت سمرا إلى القاهرة، عادت لسناء مرفوعة الرأس لإحساسها أنها أصبحت تعينها على ظروف الحياة القاسية بعد أن كانت حمل عليها .

سناء:- عندي بقي ليكِ خبر .. مش هتصدقي.. مفاجأة .

سمرا:- خير

- سامر جايب لك عريس .

- سامر؟ و هو سامر ليه علاقات أو معارف غيرنا أصلًا؟

- قال اِتعرف عليه من فترة ..مالك يا سمرا ؟ أنتِ مش فرحانة ؟

- هو أنا لسة شوفته عشان أفرح و لا أحزن .

- سامر بيقول إنه غني ، و عنده محلات ملابس رياضية.. ماهو اِتعرف عليه لما كان بيشتري من عنده .

لم تعرف سمرا إن كان عليها أن تفرح أم تبكي، موافقتها على العريس تعني اِنقطاع الأمل للأبد في عودة فاروق، و لكن ما أدراها أنه مازال على حبها باقيًا ؟ عله خطب أو حتى تزوج، وبعد التفكير العميق و خوفها من إثارة المشاكل مع أخويها، طلبت من سناء أن تتصل بسامر ليحدد موعد لزيارة العريس .

اِستعدت سناء و الأولاد لاستقبال العريس، أما عن سمرا فقد كانت تتجمل بقلب مكسور و هي ترى طيف فاروق ينظر إليها في كل لحظة، ترتعش يداها كالطالب المقبل على امتحان صعب، و تبتسم لتداري الحرب المندلعة بداخلها .

و في الموعد المحدد حضر سني و تبعه سامر و معه الضيف (السيد رزق). كان الضيف رجلًا قد تعدى الخامسة و الأربعين من العمر، أسمر البشرة، قصير القامة، ممتليء و خصوصًا في منطقة البطن، بدا كرجل أخذ الزمان من عافيته أكثر مما ترك له، كانت علامات الغنى تبدو عليه، فقد كان يرتدي خاتمًا مُرصعًا بحجر كريم و سلسلة ذهبية عريضة، لا تليق بسنه أو بهيئته ، و قد أحضر معه عدة لفائف من الحلوى من أفخر المحال .

أما عن ظروفه الاجتماعية، فقد أخبرهم أنه أرمل و عنده ثلاثة من الأولاد، و لاحظت سمرا أن أعمارهم تقارب عمرها، جلست سمرا معه و لم تبال لسنه أو هيئته، فقد كانت رغم حداثة سنها فتاة ناضجة العقل طيبة القلب، و حاولت أن تتحدث معه لتعرف شخصيته، فلاحظت أنه بالرغم من اِفتقاده للوسامة و الشباب إلا أنه رجل رزين و حديثه متزن و آرائه جيدة بالإضافة إلى أنه ناجح

في تجارته، لاحظ الجميع اِنبهاره بجمالها و شبابها، و سعادته التي كانت بادية عليه بالحديث و الجدل معها في شتى مجالات الحياة .

تكررت زيارات السيد رزق و كان في كل مرة يزيد إعجابه بسمرا، و لكنها ظلت في حيرتها فلم تقدر أن تحسم أمرها، أو تنسى ذكرى حبيبها الذي لم يُفتح قلبها لغيره، وفي يوم من الأيام قرر سني و سامر أن يجلسا مع العريس يمليان عليه طلباتهما .

سني: - أنت عارف طبعًا الأمور اللي زي دي لازم تبقى على نور قبل ما نقول كلمتنا .

سامر:- متقلقش يا سني.. رزق بيه بيعرف يقدر قيمة الناس كويس .

اِبتسم رزق برزانته المعتادة .

سني:- طبعًا أنت عارف إنها صغيرة و عايزين نفرحها

رزق:- طبعًا .. أنا عنيا ليها .

و بعد حوالي ساعة من الحديث، طلبت سناء من سمرا أن تدخل بصينية الشاي ، فسمعت سمرا العريس يرد على أخويها بنبرة سخرية و اِستخفاف قائلًا :

- يعني أنا أجيب الشقة.. و أفرشها.. و أجيب شبكة و أدفع مهر..أومال أنتم هتعملوا أيه ؟

لم يكن هذا الرجل يعلم أن سمرا مقهورة، و لم يعلم أنها لهذا اليوم لم ترث أباها و أنها لا تملك ما تجهز به نفسها، دون أن يقصد تعييرها بفقرها، فأثار بداخلها جرحًا غائرًا لا يلتئم، غضبت سمرا عندما شعرت أنه يتعمد أن يسمعها استغلال أخويها لغناه و كأنها متآمرة معهم عليه، فوضعت سمرا الصينية و نظرت إليه و ردت على سؤاله بفخر و إباء وقالت :

-أنا هفكر أوافق أتجوزك .

بالطبع طلب العريس مهلة للتفكير، و بالطبع كانت هذه آخر زيارة له .

صارت سمرا تعرف كيف تتخطى الإحباطات و تتأقلم مع الحياة و تعيش بأمل أن تغيير حياتها بيدها و لا تنتظر المعجزات، ظلت سمرا تمضي وقت الإجازة مع سناء و أسرة حسن الذين حرصوا على أن يكونوا معها طوال فترة الإجازة، الإجازة التي أبت أن تنتهي دون المزيد من المفاجآت.

ففي يوم من الأيام نزلت سمرا لتشتري بعض الأغراض من السوق، ففوجئت بشاب يلاحقها حتى وصل إلى منزلها، يبدو أنه شاب اِفتتن بقوامها الساحر و في خلال يومين اِتصل الشاب بأخيها سامر و طلب التقدم لخطبتها.

حضر العريس الجديد، بأمل جديد، و رحل بانكسار جديد، بعد أن جلس مع أخويها يُمليان عليه طلباتهما، و يتخليان عنها للمرة الألف، وعندما كانت سمرا تضع رأسها على وسادتها كل ليلة، كانت المشاعر المتضاربة تهز كيانها، لم تعد تعرف إن كانت اِمرأة قوية صامدة تتحدى الظروف، أم أنها فتاة صغيرة تتخبط و تحتاج لرعاية ذويها و بعد أن كانت تحلم بعودة فاروق حب حياتها الوحيد ، لم تعد متأكدة إذا كان الحب أساس الزواج ، أم أن الزواج في حد ذاته أصبح أملًا بعيد المنال، كانت كريشة صغيرة في مهب الريح تستسلم للأقدار تارة، و تحاربها تارة، و تدعو الله كل ليلة أن يدلها على الطريق بعد أن أصبحت توقن أن أخواها لا يهمهما أمرها و لا مصلحتها، و لا يعنيهما ما تؤول إليه حياتها .

.....

الفصل الرابع و العشرون

قبيل اِنتهاء الأجازة الصيفية، و عندما كانت سمرا تحضر حقائبها اِستعدادًا للرحيل للعريش مرة أخرى، فوجئت بساعي البريد يحضر لها خِطابًا مُسجلًا بعلم الوصول من الإدارة التعليمية، فقرأت سمرا الخطاب في اِنبهار و نادت أختها

سناء :- خير يا سمرا طمنيني .

- مش هتصدقي.. الوزارة مرشحاني للإعارة لدولة ليبيا بناء على تقرير أبلة الناظرة عني !

- ليبيا ..يعني إيه ؟ لازم تسافري يعني و لا إختياري ؟

- لاء طبعًا إختياري، لكن الإعارة بتكون للمتميزات فقط ، دا المرتب هناك تلات أضعاف مرتبي الحالي .

- يااه .. تلات أضعاف !

- الإعارة خمس سنين .

- يعني أنتِ موافقة ؟

- دي فرصة يا سناء ..أقف على رجلي و أساعدك أنتِ و الولاد

- دا سني كان موافق عالعريش لأنها في مصر.. تفتكري هيوافق على ليبيا ؟

- زي ما عملنا المرة اللي فاتت.. كلميه واسأليه .

- أمري لله .

و كأن ما حدث منذ عام يعيد نفسه، وافق سني دون أدنى تفكير، و دون أي تحفظات، و بالطبع رحب سامر جدًا بالفكرة، لم تعد تؤرقه العنترية المصتنعة، و لم يعد يخشى عليها من الآخرين، و لم يعد يحافظ على العادات و القاليد كما كان يزعم ، طالما لا يكلفه الأمر أيّة نفقات.

سناء:- مالك يا سمرا ؟ مش شايفاكِ فرحانة !

- فرحانة .. بس أقولك حاجة .. على أد ما أنا فرحانة إني هسافر،على أد ما حزنت إنهم وافقوا بالسرعة دي ..كان نفسي يقولوا لي إنهم خايفين عليا ..أو حتى يرفضوا .

- يا بنتي أنا أكبر منك .. بطلي تتعشمي في الناس عشان ماتتصدميش .. حتى لو كانوا أقرب الناس لكِ .

- يعني كل الناس وحشين ؟

- اللي عمره ما نصفك زي إخواتك دول ماتتعشميش فيه تاني أبدًا.

- الله يرحمك يا بابا ..أنت و أبيه حسن .

قررت سمرا أن تسلك طريقها الجديد بكل بسالة، أقدمت على الرحيل الذي كانت تعلم أنه المسمار الأخير في نعش حلمها، بملاقاة فاروق الذي اِعتقدت أنه نسيها، فكان الرحيل رحلة للهروب و أملًا في طمس الذكريات ، و سبيلًا لخلق مستقبلٍ أفضل .

و في غضون أيام جهزت سمرا أوراقها و سافرت في الموعد المقررإلى الجمهورية العربية الليبية، وتوجهت إلى المدرسة، مدرسة "جو زناتة الثانوية للبنات" ، فسلمت أوراقها ، ثم ذهبت مع عامل من عمال المدرسة ليدلها على شقة مفروشة للإيجار.

نجحت سمرا في استنجار شقة صغيرة مكونة من جحرة و صالة، في عمارة قريبة من المدرسة، كان أغلب سكان العمارة من المغتربين الذين حضروا للعمل في البلد، تعرفت سمرا على جارتها ماري و زوجها سعيد المصريين اللذين حضرا للعمل في البلد منذ عاميين، كانت سمرا تطرق بابهما أحيانًا لتستعين بماري لتدلها على أماكن الأسواق ، و كانت ماري تسأل سمرا عن طرق عمل أشهى المأكولات و أسرار الطبخ .

لاحظت سمرا أن سكان البلد لا يختلفون عن المصريين في عاداتهم و طباعهم ، و كانوا أقرب في حضارتهم لأهل العريش من حيث الثقافة البدوية، حتى أصناف الطعام كانت قريبة للأصناف العريشية .

لاحظت أيضًا توفر زيت الزيتون بأنقى أنواعه، و كثرة استخدام الليبيين له في أغراض التجميل كالعناية بالشعر و البشرة، و أيضًا في الطهي، كان نظام العمل بالمدرسة لا يختلف عن نظام العمل بالمدارس المصرية، فكان الأمر يسيرًا بالنسبة لسمرا التي سرعان ما تأقلمت على المكان الجديد، و حازت على ثقة موجهة المادة و ناظرة المدرسة، في نفس الوقت الذي كونت فيه صداقات مع زميلاتها في العمل .

و في يوم من الأيام طرقت ماري باب شقة سمرا

ماري:- مساء الخير يا سمرا .. فينك بقالك كام يوم ماسألتيش عليا، قولت أطمن عليكِ .

- أهلًا ماري .. معلش أنتِ عارفة الشغل بقي و التحضير للدروس و تصحيح الواجباب .

- التدبير المنزلي له واجبات ؟

- طبعًا .. ساعات كمان واجبات عملية في الطبخ أو التفصيل عشان أتاكد إن البنات فهموا الدرس .. اتفضلي، مش معقول تفضلي واقفة كده على الباب .

- بصراحة أنا قاصداكِ في خدمة .. و عارفة إنك مش هتكسفيني .

- أي خدمة .. أنا تحت أمرك .

- سعيد عايز يعمل عزومة لزمايله في الشغل و المديرين .. أنا

قلت محدش هينقذني إلا أنتِ .

- عايزة وصفات ؟

- لاء أكتر شوية .. لو ممكن تيجي تساعديني في تحضير الأكل و عمل التورتات لأن الحلويات صعبة عليا .. و دا جميل مش ممكن أنساه .

- حاضر يا ستي.. شوفي ناوية على امتي و أنا أكتب لك لِستة الطلبات تجيبيها و أنا معاكِ .

- بالأمانة أنتِ أجمل أخت .

اِبتسمت سمرا التي كان الخير و معاونة الناس جزءًا من كيانها رغم قسوة الظروف التي واجهتها في حياتها، إلا أن الزمان لم يستطع أن يسلب منها رقة قلبها و حبها للناس و حسن ظنها بهم ، فلم تكن تبخل بنصيحة، أو معروف أو حتى مال رغم ضيق اليد، و بالفعل سلمتها قائمة بالمشتريات وفي أجازة نهاية الأسبوع ذهبت سمرا إلى جارتها منذ الصباح الباكر و أخذت تصنع الحلوى و تبدع كعادتها غير مدخرة أي جهد أو تعب في سبيل إسعاد جارتها .

ماري:- بصراحة أنا مش مصدقة الجمال دا كله و لا يمكن حد من الضيوف يصدق إن الحلويات دي شغل بيتي .. فعلًا إدي العيش لخبازه .

- الحمد لله إننا خلصنا بدري علشان تلحقي تلبسي و تجهزي نفسك .

- و أنتِ كمان تلحقي تلبسي، اِوعي تقولي إنك مش هتحضري

الحفلة .. دا سعيد يزعل و يقلب الدنيا .

- شكرًا يا ماري .. بس فعلًا مش هينفع..أنا ما أعرفش حد من الضيوف .

- تعرفيني أنا ..أرجوكِ ما ترفضيش .

- طب هحاول .

- هستناكِ .

.....

الفصل الخامس و العشرون

اِستعدت سمرا لحضور الحفل، فهندمت شعرها الأسود الحالك، و وضعت القليل من مساحيق التجميل و الكحل الأسود ، واِرتدت فستانًا من الشيفون الأسود منقوش بورود قرمزية صغيرة، و زينت جِيدها بشريط من القطيفة السوداء المتدلي منها حلية ذهبية صغيرة، و اِرتدت حذاءًا عالي الكعب، فتحول مظهر المرأة العملية إلى مظهر نجمة من نجوم الفن .

ماري: -أهلًا سمرا .. أيه الشياكة دي كلها ؟

سمرا :- بعض ما عندكم .

- اِتفضلي .. لسة بقول للضيوف إن التورتات الجميلة دي من صنع ايدك .

رد أحد الضيوف والذي كان يمسك طبقًا به قطعة من الحلوي :

- فعلًا تسلم ايدك .

فقالت ماري :- أقدم لك دكتور راضي، زميل سعيد في الشغل .

سمرا:- تشرفنا .

ماري:- دكتور راضي مندوب دعاية أدوية .

كان راضي شابًا في الخامسة و الثلاثين من العمر، لم يكن وسيمًا لدرجة عالية و لكنه كان متناسق القوام، مشدود العضلات بصورة ملفتة .

راضي:- و حضرتك في ليبيا زيارة و لا شغل ؟

ماري: - بعد إذنكم .

سمرا: - لا.. أنا مُدرسة إقتصاد منزلي .

- قولي كده بقى .. الموضوع فعلًا دراسة مش موهبة فقط .

ضحكت سمرا و قالت:

-هي دراسة و موهبة .. الاتنين مهمين .

- كان نفسي آخد قطعة كمان من التورته.. بس من ساعة ما بطلت تمارين و أنا بحافظ على وزني .

- تمارين !

- أنا كنت بطل الجمهورية في رياضة الجمباز.. عارفة حضرتك فرقة رضا ؟ كلهم أصدقائي و كانوا زمايلي في الرياضة .

بدأ حديثه يجذبها ، فقد بدا شخصًا خلوقًا، و خفيف الظل ، إلى جانب إعجابه بها الذي ظهر في تركه جميع أصدقائه من الضيوف و وقوفه للحديث معها.

اِنتهت الليلة و غادرت سمرا و لم تعلم إن كانت ستقابل هذا الشاب مرة أخرى ، و لكنها علمت أنها اِستمتعت بالوقت القليل الذي قضته معه .

مرت الأيام بالروتين المعتاد، بين العمل و متطلبات المنزل و زيارات قصيرة لماري، و بالطبع كانت سمرا حريصة على أن ترسل الجزء الأكبر من راتبها لسناء كعادتها منذ بدأت العمل، قرابة اِنتهاء العام الدراسي أبلغت المدرسة سمرا أنه تم نقلها لمدرسة أكبر في وسط البلد بعد أن أثبتت جدارتها و قدرتها على تحمل المسؤولية .

سمرا: - متشكرة يا أبلة.. بس المدرسة دي بعيدة عن السكن .

الناظرة :- لسه بدري يا سمرا على النقل .. قدامك فترة كافية للبحث عن مسكن جديد، رجعت سمرا مهمومة إلى ماري لتخبرها ما حدث إلا أن ماري شجعتها و وعدتها بأن تساعدها في البحث عن منزل جديد بعد عودتها من الأجازة .

عادت سمرا إلى مصر محملة بالهدايا من الملابس الفاخرة والعطور و الأحذية لسناء و ولديها، و لم تنس أخواها بزجاجتين من العطر الفاخر و كذلك هدايا صغيرة لعائلة حسن التي تربت وسط حنانهم و حبهم، لم تكن هناك أية مفاجآت عائلية هذه المرة، فقد كان كل شيء على حاله، كانت مصر في هذه الفترة تمر بظروف عصيبة، تذكر سمرا جيّدًا صوت يصيح : - طفوا النور، يتبعه ظلام دامس وقد اِنطفأت جميع الأنوار، و من ثم أصوات اِنفجارات و قنابل، إنها حرب 67 ، و بعد ذلك سمعت سمرا أخبار النكسة من الإذاعة و من الأقارب

المهتمين بالسياسة التي لم تكن تعي فيها الكثير، فقد كان جهادها الأسمى هو السعي وراء تأمين مستقبلها و مستقبل سناء و أولادها .

لم تمكث سمرا لآخر الأجازة، فقد كانت قلقة بخصوص البحث عن سكن جديد ، فقررت قطع أجازتها قبل انتهائها بشهر كامل وفي طريقها إلى المطار لاحظت ازدحامًا شديدًا غير معتاد في الشوارع، حينما أخبرها سائق التاكسي أن الرئيس جمال عبد الناصر قد تنحى عن الحكم و أن الشوارع مزدحمة بالمتظاهرين المطالبين بعودته .

لم تكن تعنيها السياسة و الحروب، فقد كانت تعلم أن هذا له رجاله، أما هي فقد كانت معركتها التي بدأت و هي في العاشرة من عمرها، هي حربها التي لم تنته يومًا و لم تأخذ هدنة .

عادت سمرا إلى مسكنها القديم و ما أن وصلت حتى ذهبت لماري لطلب المساعدة

سمرا:- أنا قلت أرجع بسرعة عشان ألحق ألاقي سكن قبل الدراسة .

ماري:- ماتقلقيش.. صحيح وسط البلد زحمة و مفيش أماكن كتيرة معروضة، لكن سعيد و عدني إنه هيتصرف .. إحنا مش ممكن ننسى جدعنتك معانا .

- متشكرة جدًا .. طمنتيني

- فاكرة الدكتور راضي زميله ؟ ساكن في وسط البلد و كان بيقول إن في شقة فاضية في العمارة اللي قدامه.

-بجد يا ماري ؟ طيب امتى أقدر أشوفها ؟

- في الأجازة الأسبوعية .. سعيد ممكن يوصلك .

- ربنا يخليكِ يا ماري .

و في الموعد المتفق عليه ذهبت سمرا و عاينت الشقة، و اِتفقت مع صاحبها على إيجارها.

سمرا:- متشكرة جدًا يا دكتور .

راضي:- العفو أنا ماعملتش حاجة .. اِسمحي لي أساعدك يوم ما تنقلي حاجاتك من الشقة القديمة .

- أشكرك.. هي بس شوية شنط و أدوات مطبخ .. و ماري و سعيد هيساعدوني أنزلهم .

سعيد:- طبعًا .

راضي:- عمومًا لما توصلي هنا ناديني أساعدك تطلعيهم الشقة .

و في خلال يومين اِنتهت سمرا من نقل أغراضها للشقة الجديدة، و شعرت بارتياح كبير لانتهائها من هذه المهمة قبل بداية العام الدراسي .

راضي: -محتاجة حاجة تانية ؟

سمرا:- متشكرة جدًا تعبتك معايا، لو ممكن توصفي لي مكان للتصوير الفوتوغرافي .. محتاجة صور شخصية لاستكمال أوراق التعيين في المدرسة الجديدة .

- أنا فاضي بكرا .. أيه رأيك نفطر مع بعض في الكافيتريا اللي على الناصية و بعدين أوصلك تتصوري .

- ممكن توصف لي المكان و أنا هروح .. مش عايزة أتعبك أكتر من كده .

- بالعكس أنا سعيد إنك اِعتبرتيني صديق و سمحتي لي أساعدك.. و لعلمك صاحب محل التصوير صديق من مصر.. و أنا بزوره كل فترة و بقالي كتير عايز أعدي عليه .

- خلاص لو مفيهاش تعب نتقابل بكرا .

شعرت سمرا بشهامة الشاب مما جعلها ترتاح للتعامل معه، و خالت أن وجوده سيعوضها عن وجود ماري و سعيد، لم تكن سمرا تفقه الكثير عن معادن الناس ، فبالرغم من اِستقلاليتها إلا أنها لم تتعامل مع الناس إلا من خلال عائلتها أو زميلات الدراسة أو العمل فيما بعد، في نطاق ضيق مقيدًا باللوائح والضوابط .

كان راضي حريص على أن يظهر في صورة مثالية ليس أمامها فقط، و لكن أمام سعيد و زملائه في العمل أيضًا، فصار في نظر الجميع شابًا في قمة الاحترام و الخلق، ذهبت سمرا مع راضي في اليوم التالي إلى استوديو التصوير، و كما أخبرها راضي كان صاحب المحل (وحيد) هو صديق شخصي له، بعد اِلتقاط الصور سأل صاحب المحل سمرا إن كانت لها أصول ريفية، و إن كانت قد سكنت حي العباسية من قبل

سمرا: -فعلًا.. عرفت إزاي ؟

وحيد: كنا جيران ..أنا وحيد ابن جيرانكم في العباسية..ابن الحاجة راجية .

راضي: - ياه .. و عرفتها بعد العمر دا كله ؟

وحيد:- عرفت ملامحها شوية .. لأنها اتغيرت كتير لكن عرفتها من الاسم اللي طلبت تستلم بيه الصور .. سمرا عبد الجليل .

سمرا:- أهلًا وحيد .. إزيك و إزيها طنط راجية ؟

وحيد:- بخير الحمد لله.. إحنا حاليًا ساكنين في منطقة كوبري القبة .. و الدكتور راضي و والدته و إخواته جيراننا .. أحسن ناس و عِشرة عمر .

زادت ثقة سمرا في راضي عندما وجدت وحيد يمتدحه و يمتدح أسرته ، و مع الوقت تحولت الثقة إلى إعجاب، تسلمت سمرا العمل بالمدرسة الجديدة و

كعادتها تعرفت إلى الزميلات و الموجهات و قامت بالتنسيق معهم و اِستعدت لتثبت جدارتها و قد سبقتها سمعتها الطيبة .

كانت سمرا تسير للمدرسة ذهابًا و إيابًا حيث كانت تبعد عن منزلها الجديد بحوالي شارعين فقط، كانت تمر صباحًا على الكافيتريا التي اصطحبها إليها راضي من قبل، فتجده في بعض الأيام جالسًا يشرب قهوته و يتناول إفطاره، فتحييه و يحييها بإماءة مع ابتسامة حتى ترك قهوته ذات يوم و أقبل عليها و قال :

- صباح الخير.. ماتتفضلي تشربي الشاي .

- متشكرة جدًا .. لازم نكون موجودين في طابور الصباح .. ما أقدرش أتاخر .

- أنا بكون موجود من سبعة .. ممكن لو نزلتي مرة بدري شوية تتفضلي تشربي معايا الشاي .

- إن شاء الله

- بكرا؟

- خليها بظروفها.

- هستناكِ .

خجلت سمرا من جرأته، و لكنها شعرت أنه يود التقرب إليها، عله يريد أن يتعرف على شخصيتها من أجل الارتباط ، نزلت سمرا في اليوم التالي مبكرًا و قابلته في المكان المعتاد، كان الحوار عاديًا ، حوار صديقين يتسامران في الغربة ، عن أحوال العمل، و عادات البلد و المواطنين الليبيين و طباعهم . شعرت سمرا بألفة تجاهه، و شعر هو و كأنه يعرفها منذ زمن.

راضي:- اتكلمنا عن كل الناس و ماتكلماش عنك .

اِبتسمت سمرا و قالت:

- الوقت سرقنا .

- هتيجي بكرا ؟

- خليها بظروفها .. بصراحة الصحيان بدري أوي كده صعب .. خصوصًا إني بقعد في دوشة الشغل و الطالبات لحد الساعة أربعة .

- و لا صعب و لا حاجة .. بالتعود .. اِتعودي تنامي بدري و تصحي بدري هتلاقي الموضوع سهل .

- طب لحد ما أتعود .. خليها بظروفها .

- زي ما تحبي .

رحلت سمرا إلى طريقها، و الابتسامة تعلو وجهها، و بدأت تسأل نفسها عما يريده منها، بل ما تريده هي، أصبحت مشاعرها حائرة، فما تشعر به ليس حُبًا و لا يرتقي لدرجة ما كانت تشعر به تجاه فاروق، لعلها صداقة و ألفة بين اثنين تقابلا في الغربة، فهل الوحدة هي المحرك الرئيسي لدفة هذه العلاقة ؟ هل للشاب مآرب أخرى أم أنه فقط يؤنس وحدته بالحديث إليها ؟

كلها أسئلة تدور بخاطرها و لا تجد لها إجابات.

في هذه المرحلة لم تعبأ سمرا كثيرًا لوضع إجابات، كل ما كان يعنيها أنه يجعلها سعيدة و يعطي بُعدًا ثالثا لحياتها المسطحة منذ وقت طويل، كانت الحياة تسير على وتيرتها المعتادة، في العمل، و السكن، و المقابلات الصباحية الشبه متفق عليها مرة أو مرتين أسبوعيًا.

تغيرت نوعية الحوار بينهما، فبعد أن كان الكلام بصفة عامة، أصبح أكثر خصوصية، صارت سمرا تحكي عن نشأتها و ظروفها

راضي:- طب و إخواتك الرجالة ؟

سمرا:- سني مدير فندق مشهور .

-غريبة .. ليه ما اشتغلتيش معاه أحسن ؟

- يمكن عشان منصبه كبير مايحبش أخته تبقى في نفس المكان .

- كان ممكن يشوف لك وظيفة في مصر .. بدل الغربة.. حتى لو مش معاه في نفس المكان .

اِستشعر راضي نقاط ضعفها التي كانت تتحدث عنها بعفوية، و شعر بالألم الذي كانت تخفيه، و بإهمال أخويها لها، الإهمال الذي يصل إلى حد الإيذاء في بعض الأحيان .

ردت سمرا مدافعة :

- لا ..أنا صممت أستقل بذاتي.. و أنا مش محتاجة مساعدته .. و كمان أنا ماطلبتش منه يساعدني أصلًا .

- طب خلاص.. ماتزعليش أنا ماقصدش حاجة.. أنا بس بسأل.. طب و أخوكِ التاني؟

- سامر في كلية الحقوق .

- أنتِ مش بتقولي إنه أكبر منك؟

- آه ..هو بس تعبان و بيجيله آلام في الكلى و بيأجل الامتحان

- و بيشتغل أيه؟

- أنا اتاخرت على الشغل .. لازم أمشي .

- أنا زهقتك بأسئلتي و لا أيه ؟

- لا أبدًا.. بس أنت عارف مواعيد المدرسة .

- لا شكلي زهقتك ..عمومًا يا ستي لو الأسئلة بتضايقك أنا مش هسأل تاني .

- صدقني ماحصلش حاجة .

- طيب لو فعلًا مش زعلانة اثبتي لي و تعالي بكرا .

- هحاول .

على مدار عام دراسي كامل تعددت اللقاءات بينهما، و يومًا بعد يوم صارت تفصح عما أخفته، حتى قصت عليه أغلب تفاصيل حياتها، فيما عدا سرها الذي لم تقصه على أحد، السر الذي أغلقت عليه قلبها للأبد، حبها لفاروق و قصة فراقهما.

كان هو الآخر يحكي لها عن إخوته البنات، و أخيه الذي يكبره بثلاثة أعوام، و كيف فضل والداه أخاه الأكبر عنه طيلة حياته مما تسبب له في عقدة نفسية تجعله يسعى طوال الوقت ليثبت للجميع أنه لا يقل عن أخيه.

عادت سمرا إلى مصر في أجازة نهاية العام كعادتها، بعد عام دراسي ناجح ، فودعت زميلاتها وودعت راضي الذي وعدها بمفاجأة عند عودتها لليبيا بعد الإجازة .

.....

الفصل السادس و العشرون

عادت سمرا إلى سناء مرة أخرى، و قررت أن تخبرها عن راضي و تأخذ رأيها حيث شعرت من كلامه أنه ينوي التقدم لخطبتها و أن هذه هي مفاجأته لها .

سناء:- يعني أنتِ بتحبيه ؟

سمرا:- هو عريس مناسب و أنا ما أقدرش أقول إني بحبه لكن مرتاحة له .

- خدي بالك يا سمرا ..أنتِ غلبانة.. و معندكيش تجارب و سهل ينضحك عليكِ .

- و هيضحك عليا ليه.. هيكون طمعان في أيه يعني .. دا هو دكتور و أنا مُدَرِسة و لا عندي فلوس و لا حيلتي حاجة .

- ازاي ؟ أنتِ مش عندك ورث من أبوكِ .. أنا متأكدة إنك قولتي له بسذاجتك .

- فين الورث دا ؟ حتى لو قولت له هو عارف إني مش هطول منه ولا مليم .

- شوفتي بقى .. الله أعلم طمعان في أيه تاني .

- و ليه ماتقوليش إنه معجب بيا ..هو لازم الناس تكون عايزه مني حاجة ؟

- يعني هو كلمك في الجواز أو حتى لمح لك ؟

- لا ..لكن حاسه إن هي دي المفاجأة اللي محضرها لي .

- عمومًا أنا حذرتك و أنتِ حرة ..أنا صحيح معرفوش ..لكن مش مرتاحة له .

- يعني أبعد عن كل الناس و أعيش وحدانية طول عمري .

- أنا مقولتش كده .. بس دا واحد معندوش أي حاجة و لا حتى شقة مستقلة و لا بيوعدك بأي حاجة .. و الحياة صعبة يا بنتي ..ما أنتِ جربتي قسوتها معايا .

- دا دكتور و المستقبل قدامه و بصراحة كفاية أنه عرف ظروفي و ظروف إخواتك و فهم أن ماعندهمش استعداد يساعدوني في أي حاجة .

- دا لوحده كفاية يطمعه فيكِ .. يا بنتي مش كل الناس تفتح لهم قلبك .. هو دلوقتي فاهم إن أخواتك مش ساندينك و إن ملكيش حد و عندك ورث .

- يووووه .. خلاص هو أصلًا ماكلمنيش في أي حاجة .. لما يطلب إيدي نبقى نفكر.. بس على الله إخواتك يسيبوني في حالي المرة دي .

شعرت سمرا بأن كلام سناء أقلقها و أحزنها و لأول مرة تراودها الشكوك من جهة سناء فقالت في نفسها:

- يمكن خايفة إني لو اِتجوزت أقطع عنها المعونة الشهرية و لا تكون زعلانة إني هستقل بحياتي و أبعد عنها، ثم جالت بخاطرها ذكرى فاروق و ظنت أنها لن تعرف الحب الحقيقي بعده يومًا ، و لكنها عرفت أن هذه هي طبيعة الدنيا، فقد فارقت قبله والديها و من بعدهم كفيلها، فصارت تستسلم لما لا تستطيع تغييره و اِعتادت أن يحرمها الفراق كل غال.

لم تفتح سمرا الموضوع مع سناء مرة أخرى حتى آخر الأجازة التي مرت كغيرها من الإجازات السابقة، و عادت سمرا إلى ليبيا بعدها لتعود إلى عملها و تعرف المفاجأه التي وعدها بها راضي .

راضي:- حمد الله على السلامة .

سمرا :- الله يسلمك .

- أجازتك أخبارها أيه؟ يالا احكي لي .

- اِحكي لي أنت الأول عن أخبارك .

- لا أخباري ماتتقالش .. دي لازم تتشاف، و اصطحبها راضي إلى ناصية الشارع ، و فتح سيارة فارهة قائلًا:

- أيه رأيك في المفاجأه دي؟

- الله ، جميلة جدًا.. مبروك .

- سافرت ألمانيا أنا و سعيد جبنا عربيتين و رجعنا .

- بجد؟

كانت سمرا تحاول أن تبدي علامات السعادة إلا أن صدمتها كانت تجعلها تريد أن تنصرف، فقد كانت تتوقع أن تكون المفاجأه شيئًا آخر.

- تعالي بقى أعزمك على الغدا بالمناسبة دي .

- لا للأسف مش هينفع النهارده .

- ليه؟

- معلش .. خليها يوم تاني .

عادت سمرا إلى منزلها و هي لا تفهم ما حدث، فهو لا ينوي خطبتها؛ فلماذا يصر على مقابلتها ؟ هل هي فقط صديقة بالنسبة له؟ هل تردد بعدما أخبرته عن ظروفها ؟ أم أنه شيء آخر؟

بعد الصدمة قررت سمرا أن يظلا صديقين و ألا تتسرع في الابتعاد عنه، فلم تكن حزينة مما حدث لأنه بالنسبة لها لم يكن يتعدى كونه عريسًا مناسبًا.

في يوم من الأيام دعت ماري سمرا إلى نزهة خارج المنزل، حضرت سمرا بعض أصناف الطعام الشهي و مر عليها راضي ليصطحبها إلى المكان المحدد . كانت النزهة على شاطيء البحر، قضت سمرا اليوم مع ماري و سعيد و الأصدقاء ، و في وسط الحديث سمعت ماري تقول لراضي "ليلي" ، اِستغربت سمرا و ما أن اِنفردت بماري حتى سألتها عن الفتاة قائلة :

- مين ليلى؟ دي أخته؟

ماري: يا خبر ! هو أنتِ سمعتيني ؟ دي بنت كان بيحبها، كان حكالي عنها، بس دا سر أرجوكِ ماتقوليش إنك عارفاه ليزعل مني .

اِستعجبت سمرا لأمره، لماذا حكى لها عن كل شيء إلا فتاته ؟ هل هو متعمد خداعها أم أنه أخفى هذا لأنه أمر لا يعنيها ؟ و هل مازالت فتاته أم أنها ماضيه ؟ أيًّا كان السبب فهو لا يعنيها، فقد كانت قد أسقطته من حساباتها منذ فترة و لم يعد يهمها ارتباطه من عدمه، أو على الأقل هذا ما حدثت به نفسها .

منذ ذلك اليوم و سمرا تتعامل معه كصديق عادي و لم تعد تفكر فيه كشريك للحياة بالرغم من تلميحاته أحيانًا عن اِفتقاده لها حين تغيب، أو عن جمالها حين ترتدي ثوبًا جديدًا، إلا أنها صارت تدرج ذلك تحت قائمة المجاملات الاجتماعية ليس أكثر .

مر العام كسابقه، و أصبحت سمرا تستعد للنزول للأجازة ، إلا أنها فوجئت براضي يطلب مقابلتها

سمرا:- عايز حاجة من مصر ؟

راضي:- شكرًا تسلمي .. أرسلت صورتنا على البحر يوم الرحله لوالدتي عارفة مين كانت معاها ؟ الست راجية ..أم وحيد .

- بجد ؟ و عرفتني ؟

- عرفتك و قالت بعلو صوتها " الله .. دي سمرا " فردت أمي عليها بسذاجه " ملكيش حق يا راجية.. دي حتى بيضا "

ضحكت سمرا و ضحك راضي ثم سألته:

- أرسلت لوالدتك الصور كلها ؟

- لا الصورة دي بس.. ما هو دا الموضوع اللي عايزك عشانه .

- مش فاهمة !

- والدتي عجبتها قوي صورة العروسة .

سمرا في ذهول:

- تقصد مين؟

- أقصدك أنتِ طبعًا

- أنت عايز ترتبط بيا ؟

- يعني كل الفترة دي ماكنتيش واخده بالك؟

سمرا في حيرة:

- مش عارفة .. بس عمرك ما كلمتني في حاجة عن الموضوع دا .

- عمومًا لو كنتِ موافقة يبقى نحدد ميعاد مع السفارة عشان عقد القران .

- بسرعة كده .. طب مش لما أفكر و أسأل إخواتي في الأجازة !! أستأذنهم و أبلغهم، هو أنت مش هتنزل تتعرف عليهم ؟

- لا للأسف ظروف الشغل تمنعني أنزل قبل سنة .. و أنتِ بنفسك عارفة إن أخواتك ممكن يعرقلوا الموضوع، اِستأذنيهم بالتليفون .

- بس هقولهم أيه؟

- ماتخافيش .. ما هيصدقوا إنك تتجوزي بدون أي مسؤولية منهم .

- لا طبعًا .. دول بيخافوا عليا جدًا .

- ما أنا عارف .. بس جربي

- مش فاهمة أيه لازمة الاستعجال؟

- الاستقرار شيء جميل .. و أنا متأكد إنك تعبتي من الوحدة زيي تمام .

و بعد إلحاحه الشديد على الارتباط قبل نزولها الإجازة ، و إقناعه لها بشتى الطرق ، تحمست سمرا للفكرة، لم تستطع أن تنكر فرحتها، فقد كانت كأي فتاة تشعر أنها تحتاج الاستقرار، إلى جانب أنها كانت تعلم بأن فرصتها في الزواج ضئيلة نظرًا لظروفها العائلية، و أيضًا لتقضيتها كل وقتها في مدارس للفتيات حيث ينعدم المجال للقاء الزوج المناسب، فاتصلت سمرا بسناء تخبرها ما حدث

سناء: -غريبة ! فجأة كده قرر يتجوزك ؟

سمرا:- مش فجأة و لا حاجة.. بقالنا سنتين تقريبًا نعرف بعض

- طب أيه وجه الاستعجال؟

- و أيه سبب التأجيل؟

- خلاص يا سمرا .. هكلم سني و اِطلبيني بعد كام يوم أرد عليكِ .

مر اليومان و سمرا في سعادة غامرة، صارت تحلم بالبيت و الأولاد و الحياة المستقرة التي حرمت منها، ثم اِتصلت بسناء لتعرف الرد

سناء:- سني بيقولك ألف مبروك .

سمرا:- يعني ما اعترضش؟

- ما اعترضش يا بنتي خالص.. بس أنا حازز في نفسي إنك تتجوزي في الغربة كدا .

- ماتزعليش يا سناء .. أنا إن شاء الله هنزل في الإجازة، كلها أسبوعين .

- و العريس هيسيبك تنزلي؟

- آه طبعًا .

- أنتِ بتحلمي .. مش بقولك أنتِ غلبانة و مابتفهميش الناس .

ذهبت سمرا لتبلغ راضي بالنتيجة التي كان يعرفها مُسبقًا

سمرا: - تخيل سناء فاكراك هتمنعني من النزول في الإجازة

راضي:- هو أيه الداعي إنك تنزلي و تسيبيني لوحدي .

- أنت عارف إني مسؤولة عن ولاد أختي، و بنزل كل أجازة وأنا جايبة لهم كسوتهم من هنا.

راضي (و قد بدت عليه علامات الغضب الذي يحاول اخفاءه):

- تقدري تبعتي الهدوم من غير ما تسافري، و عمومًا بعد كده تبقي تاخدي رأيي، الوضع هيتغير و اللي يحتاجه البيت يحرم على الجامع .

سمرا (في تحفز ملحوظ):

- يعني عايزني أبطل أساعدهم ؟

- أنتِ حرة في فلوسك طبعًا .. دي حاجة ترجع لك .. لكن كل شيء بالمعقول .

قبل نهاية الأسبوع أخبرها راضي بأنه قد حجز موعد في السفارة المصرية لعقد القران .

سمرا:- بسرعة كده؟ أنا لسه ماجهزتش نفسي .

راضي:- قدامك يومين.. هو أنتِ يعني هتجهزي أيه؟ شوية العِزال بتوعك هننقلهم شقتي و خلاص .

جلست سمرا تفكر فيما سترتديه لكتب الكتاب، ففتحت دولابها فلم تجد فيه أجمل من الثوب الذي صنعته في المعهد، لم تكن تملك ما هو أقيم منه ثمنًا، و لم يكن عندها سعة من الوقت لتشتري غيره إلى جانب أنه لم يكن هناك حفل و لا معازيم، فقررت أن ترتديه بالرغم من أنه ليس جديدًا .

و في اليوم الموعود حضرت ماري لتساعدها قبل الذهاب للسفارة، و أحضرت لها تاجًا مُرصعًا بالكريستال كهدية زواج، تجملت سمرا بلمسات رقيقة و بسيطة لا يبرز فيها إلا الكحل الأسود، و اِرتدت الثوب الأسود المزين بالخيوط الفضية الذي يجعلها تبدو كعروس البحر، و حذاءها الفضي، ثم وضعت التاج اللامع ألصغير علي شعرها ألاسود ألحالك و نظرت في المِرآة، فكانت تبدو كالأميرات.

ماري: - قمر يا سمرا .. ربنا يتمم بخير .

سمرا: - شكرًا يا ماري.. أنتِ فعلًا أحسن صديقة .

حضر راضي في الموعد المحدد و اصطحب سمرا في سيارته بينما لحقه سعيد و ماري بسيارتهما.

كانت السفارة المصرية قد جهزت غرفة لعقد القران، و ملأتها بكؤوس الشربات ، و قد أرسل السفير المصري تورتة بيضاء للعروسين كلافتة رقيقة منه.

اِنشرح صدر سمرا لما رأت التجهيزات التي أعدتها السفارة المصرية، و قل شعورها بوحدتها بالرغم من عدم وجود أي من أهلها إلى جانبها، و تم عقد القران، فأقبلت ماري تهنئها:

ماري: - ألف مبروك .

سمرا:- شكرًا يا ماري أنتِ أجدع صديقة قابلتها

- ماتقوليش كدا يا سمرا .. دا واجب عليا .. أنتِ اللي فعلًا جدعة .. كفاية إنك وافقتي على الجواز في الظروف دي .

- يعني قلنا مفيش داعي نضيع وقت و نستنى ننزل مصر .

- لا .. قصدي أزمة العمل اللي اِتعرض ليها راضي .

- أزمة العمل؟

- بس صدقيني سعيد هيساعده يلاقي شغل تاني، أنا مش فاهمة ليه إدارة الشركة رفضت تجديد عقده في ليبيا، عمومًا كده مشكلة الإقامة اِتحلت .. البركة فيكِ . . هيجدد إقامة كمرافق للزوجة، سمعت سمرا الكلام ثم بدأت أذناها تطنان و لم تعد تعي ما تقوله ماري، فقط نظرت عبر الغرفة لتلتقي عيناها بعينيه عبر الحضور، فابتسم لها، فبادلته ابتسامة مصتنعة، بينما كانت جميع أسئلة الدنيا تجول بخاطرها :

-هل أسرع في الزواج بها لحبه لها أم لأغراض أخرى؟ هل ستستعيض به عن الأب الذي فقدته، أم أنه سيكون أشد قسوة و ضراوة من أخويها ؟ هل تجد معه البيت المستقر الذي طالما حلمت به، أم أنها بالنسبة له مرحلة من حياته و سوف ينهيها إذا ما اِستنفذ غايته ؟

هل اِنتهت معاندة الدنيا لها بهذه الزيجة كما كانت تحلم، أم أنها سطرت بها بداية لرواية جديدة من الكفاح و النضال الذي هو قدرها في هذه الدنيا ؟

هل نجت من ألأهوال للأبد ، أم أن للقدر خطة أخري؟

تمت بحمد الله،

إلى اللقاء في الجزء الثاني إن شاء الله.